هُوِيَّة

مقالات في معالم الشخصية المسلمة

تأليف: هادي بهجت صبري

هُوِيَّة

مقالات في معالم الشخصية المسلمة

حقوق الطبع محفوظة

يمكن طباعة الكتاب لتوزيعه مجانا

حسابات المؤلف على مواقع التواصل

هادي صبري

هادي صبري

قناة هادي صبري

للتواصل مع المؤلف
hadi-s-1@hotmail.com

هُوِيَّة

مقالات في معالم الشخصية المسلمة

هادي بهجت صبري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هوية المسلم أو شخصيته من القضايا المركزية التي تشكل كيان المسلم ، وهي كذلك من أهم القضايا التي يحرص الغرب وأتباعهم في البلدان الإسلامية على تغييرها والعبث بها ، من خلال تغيير صبغتها الإسلامية إلى صبغة غربية .

إن مفهوم الهوية ينتظم داخله مجموعة قضايا لها ارتباط بالدين ونمط الحياة ، وذلك كمكانة الدين بالنسبة للمسلم ، وموقفه من الأديان الأخرى ، أو من المنظومات الفكرية الأخرى ، وكقضايا المرأة وتحكيم الشريعة والجهاد وغيرها من الأمور التي يصل تأثيرها إلى دين الإنسان وعقله ونمط تفكيره وتصرفاته . . والتي يتميز بها عن غيره من أتباع الأديان والمذاهب الفكرية المخالفة للإسلام .

ولا يشك عاقل في خطر العبث بهذه الأمور ، وتغييرِها نحو نمط ثقافي غربي ، لا سيما إذا استحضرنا أن المشرف على هذا التوجيه والعبث هو الغرب ذاته الذي يحتلنا ، أو يدعم محتلنا ، أو يكيد لنا... لا شك أن هذه الصورة : صورة القوي المتجبر الظالم الذي يعلّم المظلوم المقهور كيف يكون حرا متحضرا! . . لا شك أن مجرد

استحضار هذه الصورة يثير الشك -على الأقل- في نفس العاقل المخلص . . قبل أن يخوض في التفاصيل .

وما نراه ونسمعه في المجتمعات الإسلامية عموما ، من عبث بهوية المسلمين كثير جدا ، يستدعي اهتمام المصلحين ، لا سيما وأن هذه القضايا قد تفاوتت فيها نظرات الناس ما بين متشدد ومتساهل . . ولا شك أن من أسباب ذلك هو حالة الهزيمة التي يعشيها المسلمون ، والتي مكنت الغرب من بث سمومه فينا .

ولا شك أن الحديث عن هوية المسلمين حديث واسع ، كما أنه حديث متجدد بتجدد الموضات الفكرية التي تدخل إلى العالم الإسلامي بوسائل متعددة . . ولذلك فقد اخترت مجموعة من العناوين التي تشيع بين المسلمين حاليا ؛ وهي ليست شاملة كلَّ ما يتداول ويثار ، كما أنها لم تستقص كل ما يمكن أن يدخل تحت مفهوم الهوية . . وتسهيلا لفهم الترابط بين هذه الموضوعات فقد قدمت بين يدي هذه المقالات بمدخل اشتمل على موضعات ممهدة ، وفي الوقت ذاته تشكل بعض معالم هوية المسلم ، ثم قسمت هذه المقالات إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : الدين ؛ وفيه مقالات حول أهمية التدين ، وحول الدين الحق وهو الإسلام ، وبعض ما يترتب على ذلك ، وفيه كذلك مقالات حول موقف المسلم من الأديان الأخرى .

ولما كان الكلام عن الدين الحق وموقف المسلم من الأديان الأخرى مرتبطا بموقف المسلم من المذاهب الفكرية المعاصرة ، فإن القسم الثاني من هذه المقالات يتعلق بالفكر المعاصر ؛ وفي هذا القسم مقالات حول موقف المسلم من المذاهب الفكرية المخالفة للإسلام ، وحديث حول أبرز معالم الفكر الغربي عموما .

ومن الأمور التي ترتبط بموقف المسلم من الأمم الأخرى :

القسم الثالث : الجهاد ؛ وفي هذا القسم حديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعن الجهاد وطبيعته .

وأخيرا فإن من أهم القضايا الفاصلة بين الإسلام والفكر الغربي الحديث عن :

القسم الرابع : الأسرة ؛ وفي هذا القسم مقالات حول مركزية الأسرة في الإسلام ، وحول مركزية العفة في التشريع الإسلامي ، وحول مجموعة من القضايا المتعلقة بالمرأة .

ويبقى الرابط الأبرز بين هذه المقالات أنها من المعالم الأساسية لهوية المسلم ، والتي تثار حولها الشبهات من قبل المبطلين .

إن كل عنوان من العناوين التي تهدف هذه المقالات إلى الحديث عنه تحته تفاصيل كثيرة ، وخوض كبير ، والمراد بهذه المقالات إعطاء المسلم -غير المتخصص في علوم الشريعة- لمحةً صافية من الكدر ،

تبصّره حقائقَ الأمور التي يراها حوله ، وتكون له كالدرع الذي يتقي به الضربات ، إلى أن يعود إلى حصونه ، ثم يكِرّ على عدوه .

إن هذه المقالات لم تهدف إلى مناقشة الشبهات تفصيلا ، وإنما حاولت أن تبني نظرة صحيحة تجاه أهم القضايا المتعلقة بالهوية الإسلامية ، والهدف منها تقريب صورة هذه القضايا لغير المتخصصين ، كطلبة الثانوية والجامعات .

وأنبه إلى أن نمط الكتابة هنا هو نمط المقالات ، ولذلك لم يكن فيها توثيق تفصيلي ، وكان الاعتماد -بالجملة- على المراجع الآتية :

- ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي ، للدكتور سلطان العميري .
- سلطة الثقافة الغالبة ، للشيخ إبراهيم السكران .
- مآلات الخطاب المدني ، للشيخ إبراهيم السكران .
- مليشيا الإلحاد ، للشيخ عبد الله العجيري .
- سابغات ، للشيخ أحمد السيد .
- الإلحاد ، وثوقية التوهم وخواء العدم ، للدكتور حسام الدين حامد .
- ثلاث رسائل في الإلحاد والعقل والإيمان ، للدكتور عبد الله الشهري .

- الدين ، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، للدكتور محمد عبد الله دراز .

قائمة المحتويات

مقدمة ١

بين يدي المقالات

الهوية . . لماذا؟ ١٠
التسليم للنص الشرعي ١٣
مصادر المعرفة ١٧

الدين

مركزية التدين في حياة الإنسان ٢٢
الدين الحق ٢٦
هل الجنة للمسلمين فقط؟ ٢٩
هل اليهود والنصارى كفار؟ ٣٧
ماذا يترتب على كون دين الإسلام حقا في نفسه؟ ٤٥
تعظيم شعائر الله تعالى ٤٩
مركزية الآخرة ٥٢
هل يتعارض العلم التجريبي مع دين الإسلام؟ ٦٠

الفكر المعاصر

موقف المسلم من المنظومات الفكرية الأخرى ٧٠
الغرب والتدين! ٧٦
ارتباط صلاح النظام الأخلاقي بالإيمان بالله تعالى . . عجز البشر ٧٩
لماذا يتحلى الغربيون بالأخلاق الحسنة؟ ٨٢
عداء أم وئام؟! ٨٧
العداء التاريخي ٩٠

الانبهار بحضارة الغرب ٩٤
نظرة على التأثر الإسلامي بالفكر الغربي ١٠١
تأثير النشاط التغريبي على بلاد المسلمين ١٠٦

الاحتساب والجهاد

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١١٢
الجهاد . . طبيعته والحكمة منه ١١٨
الحكمة من جهاد الطلب ، وجمالية تشريعه ١٢٤
ما الفرق بين الجهاد وبين الغزو عند الأمم الأخرى؟ ١٣١

الأسرة

مركزية الأسرة في الإسلام ١٣٨
العفة ١٤٤
الشذوذ ١٤٩
هل ميز الإسلام بين الرجل والمرأة؟ ١٥٨
الميراث ١٦٤
قوامة الرجل على المرأة ١٦٨
دور المرأة في المجتمع ١٧٤
الحِجاب مشروعيته والحكمة منه ، وأهم الشبهات حوله ١٧٧
المحركات نحو الحجاب ١٨٥
حال المرأة بين العالم الإسلامي والعالم الغربي ١٨٧
خاتمة ١٩١

بين يدي المقالات

الهوية . . لماذا؟

التسليم للنص الشرعي

مصادر المعرفة

الهوية.. لماذا؟

قبل أن نبدأ بذكر معالم هوية المسلم فلا بد لنا من معالجة سؤال مركزي يمس حياة كثير من المسلمين . . ومما لا شك فيه أن وضوح الصورة حول هذا السؤال له دور أساسي في إنشاء شخصية فاضلة متوازنة ، تفرق بين التفكير الناقد وبين الضياع وفقدان البوصلة . .

. . نعم ، هناك من يسمع الحديث عن الهوية فيقول : ولماذا الهوية أصلا؟ لماذا لا نذوب في من حولنا بحيث لا نتميز عنهـــــــــم بشيء؟

وقبل الجواب عن ذلك فلا بد أولا من تصحيح التصور الخاطئ الذي يقوم هذا السؤال عليه . . هذا التصور الخاطئ هو الظن بأن هناك مجتمعات بشرية ليس لها هوية!

نعم . . هذا هو الواقع ، فلا يوجد مجتمع إلا وله هوية ، سواء أكانت حقا أم باطلا . . كل أمة لها ثوابتها ومسلّماتها التي لا تقبل التنازل عنها ، ولا تقبل الطعن فيها . . وزوالُ هذه المعالم يعني -باختصار- تحول هذه الأمة إلى أمة أخرى ، أو إلى أمة ضائعة .

وإذا علمت هذا -أخي القارئ- تبين لك أن السؤال السابق ليس بتلك الصورة من "البراءة" ؛ بل الصيغة الواقعية له هي : لماذا لا نترك

هويتنا ونعتنق هوية تلك الأمم التي يتصور بعضنا أنها أمم تستحق أن تكون قدوة لنا؟

إن المقصود بهذه المقدمة هو إزالة تلك الصورة الوهمية التي تسبب حالة من الضياع التام ، وتسبب حالة من فقدان الأسس التي نحاكم عليها الأديان ، والأفكار ، والواقع ، والماضي . . حالة ترفع شعار الحياد والتفكير الحر ، وتستبطن في داخلها ضياعا كاملا ، أو تبعية للفكر الغربي .

إن امتلاك الإنسان والمجتمع قاعدةً فكرية هو الذي :

- يميزه عن غيره .
- يحدد له الأهداف .
- يحدد له الأولويات .
- يحدد طريقة تعامله مع الآخرين .
- يشكل الأساس الذي يكون عليه النقد .
- يشكل الأساس الذي يميز به بين الثوابت وبين المساحة التي يمكن أن تكون محلا لتعدد الآراء .

ولذلك فإن وجود الخلل في هذه القاعدة ينعكس بشكل مباشر على كيان الفرد وعلى المجتمعات وعلى الدول . . وما وجود صور الفساد والظلم والانحطاط التي نراها عند الأمم التي ضلت في هذا الباب إلا نتيجة انحرافات موجودة في ثوابتها الفكرية .

ولذلك كله فإن الإسلام لم يترك المسلم خاويا من هذه القاعدة الفكرية ، ولم يتركه يلهث وراء الإفرازات الفكرية البشرية التي يفرح بها أصحابها حينا ، ويرمونها وراءهم ظهريا حينا آخر .

لقد حدد الإسلام للمسلم من أين يتلقى معارفه ، وكيف يتعامل معها؟ عرفه بخالقه وحقوقه عليه . . بصّره بحقيقة الأديان والأفكار المخالفة ولماذا هي مخالفة ، وما موقفه منها؟ وضع له تشريعات راسخة تنظم حياته وتحقق له السعادة في الدنيا والآخرة . .

ولذلك فالواجب المتحتم على المسلم أن يتمسك بهذه النعمة الكبرى . . هذه النعمة التي تكفل له النجاة في الآخرة ، وترفعه إلى قمة هذا العالم . . تستنير البشرية كلها بنور دينه ، وهدى مبادئه .

التسليم للنص الشرعي

بعد أن تبين لك -أخي القارئ- أنه لا بد لكل شخصية من وجود قاعدة فكرية ، تعتقد صوابها ، وتفكر في إطارها ، وتقيّم الأمور من خلالها . . فإن حديثنا هنا سيكون عن معلم أساس في طريقة تعامل العقل المسلم مع النصوص الشرعية .

فمن المعالم الكبرى التي تشكل هوية المسلم : التسليم للنصوص الشرعية . . والمقصود بذلك : أن يتلقى المسلم الأخبارَ التي تأتيه عن طريق الشرع بالتصديق والقبول التام ، وأن لا يعارض ذلك بقناعات خاصة ، أو مبادئ مخالفة ، أو شهوة ، أو ذوق خاص .

هذا الموقف يفرضه العقل -ضرورةً- على كل من آمن بالله تعالى وآمن برسوله محمد ﷺ ؛

١- فإذا المسلم آمن أن الله تعالى هو خالق هذا الكون ، وأنه متصف بالعلم الكامل ، والحكمة البالغة ، والعدل التام ، وأن تشريعاته سبحانه فيها جلب المصالح للخلق ، وإبعاد المفاسد عنهم .

٢- ثم آمن بأن محمدا ﷺ رسول صادق أمين ، وأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وأنه معصوم عن الخطأ في تبليغ وحي الله تعالى .

= لزم من ذلك أن يتلقى ما جاء عن النبي ﷺ بالقبول والتسليم .

هذا المقام هو أعظم مقام في تعامل المسلم مع النصوص الشرعية ، وقد أكدته النصوص الشرعية ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، وكما في قوله : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [النور : ٥١] ، وقال : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء : ٦٥] .

ويدل عليه كذلك كل النصوص الآمرة بطاعة أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ .

والعقلاء يعدون تسليم غير الخبير لأهل الخبرة في أي فن تصرفا عقلانيا ؛ لأنه لا يعرف تفاصيل ذلك العلم أو الفن –مع أنه يمكنه أن يتعلم ذلك– ؛ فكيف يكون الحال –إذن– في التشريعات الربانية ، النازلة من عند الله تعالى ، الذي لا يمكننا أن نحيط علما بعلمه وحكمته .

وعليه فليس من صفات المؤمن المسلّم للنص الشرعي أن يربط موقفه من الحكم الشرعي بظهور الحكمة أو الفائدة من وراء هذا الحكم ، بل إنّ المسلم يقابل ما جاء به الشرع بالقبول أولا . . ثم له أن يبحث عن الحكمة ؛ فإن ظهرت له كان ذلك سببا في تقوية إيمانه ، وإن لم تظهر له بقي على أصل التسليم الراسخ .

وما تقدم لا يعني أن الأحكام الشرعية ليس لها غايات أو حِكَم ، بل ما من حكم شرعي إلا وله حكمة وفائدة دينية أو دنيوية ، وهذه الحِكَم قد تكون ظاهرة لنا بوضوح ، وقد تحتاج إلى نظر واجتهاد ، وقد تكون خافية علينا ، وقد تكلم العلماء فيها وحرصوا على بيانها ؛ ولكن المقصود هو أن لا يجعل المسلم اتباعه وأخذه بأصول الدين أو فروعه رهنا لقناعاته المسبقة أو ذوقه أو مصلحته .

ومَن أحْكَمَ هذا الأصل ، وجعل الشرع دليله ، والْتَمَس الهدى من الكتاب والسنة ، سهُل عليه مواجهةُ كثير من الشبهات ، والإجابةُ عن كثير من الأسئلة بشكل عام ، قبل أن يدخل في التفاصيل . . فتلقي أخبار الشرع بالتسليم ، وأوامره بالامتثال من أعظم الغايات التي قصد الشرع إليها .

ومن الأمثلة المعاصرة على وجود الخلل في هذا الأصل : استشكال بعض الأحكام الشرعية المنصوص عليها بشكل واضح في الشرع ، بسبب مخالفة هذه الأحكام لثقافة الغرب أو قوانينه ؛

كقتل القاتل ، وقتل المرتد ، ورجم الزاني المحصن ، وقطع يد السارق ، والأمر بالحجاب للمرأة ، ونحو ذلك من الأحكام . . فالعلماء بينوا ما في مثل هذه الأحكام من المصلحة للناس ، وأنها هي النافعة للبشر . . بينوا ذلك وفصلوه في كلام كثير ؛ ولكن مع ذلك يبقى الموقف الأول للمسلم هو تلقي هذه الأحكام بالقبول والامتثال ، بناء على ما تقدم بيانه .

مصادر المعرفة

المقصود بمصادر المعرفة : المصادر التي يتلقى منها الإنسان المعلومات ، والتي تشكل معتقداته وآراءه وطريقته في البحث والتفكير .

وإذا فهمنا مدى المساحة الواسعة والأساسية التي يتناولها هذا العنوان تبين لنا أنه معلم أساسي من المعالم التي تشكل هوية المسلم ، كما أن فهم هدي الإسلام فيما يتعلق بمصادر المعرفة له دور أساسي في ترسيخ مبدأ التسليم للنص الشرعي ، والإجابة عن كثير من الشبهات .

وتشمل مصادر المعرفة في الإسلام : النقل الصحيح ، والعقل ، والحِس ؛ فكل واحد من هذه المصادر يمكن أن يوصلنا إلى المعرفة اليقينية وحده ؛ أي أن النقل الصحيح يمكن أن يعطينا معرفة يقينية حتى لو لم تتوفر دلالة عقلية أو حسية على تلك المعلومة . . وكذلك يقال في كل من العقل والحس ؛ كل منها يمكن أن يوصلنا إلى المعرفة اليقينية إذا استعمل بالطريقة الصحيحة .

والمقصود بالنقل الصحيح : الأخبار التي يتوفر فيها شرط صحة النقل . ومن أمثلة ذلك : الوحي الصادق من جهة أنه خبر صادق يخبرنا به الأنبياء عن الله سبحانه وتعالى .

وكذلك الأخبار التي تصل إلينا عن النبي ﷺ بالسند الصحيح .

والمقصود بالعقل : المفاهيم العقلية الأساسية التي تشكل طريقة التفكير الصحيحة ، كمبدأ السببية مثلا ، والذي يدلنا على أن كل مخلوق فإنه لا بد له من خالق .

ومن المهم هنا أن نفرق بين هذه المفاهيم العقلية الأساسية -والتي يتفق عليها العقلاء- ، وبين النظرات العقلية الخاصة ببعض الناس أو بعض الطوائف . . فهذا النوع من النظرات ليس شرطا أن يكون مصدرا يقينيا للمعرفة ، حتى لو سماه أصحابه "عقلا" ، ولا يجوز أن يكون حَكَما على النصوص والأفكار ، بل هو خاضع للنقد كغيره من الآراء .

والمقصود بالحس : المعلومات التي نصل إليها من خلال حواسنا البشرية من سمع وبصر وإحساس وغيرها ، كالتجارب العلمية التي تعتمد على هذه الحواس .

وقد تجتمع هذه المصادر كلها في الدلالة على معلومة واحدة ، وقد يدل عليها مصدران ، وقد يدل عليها مصدر واحد . . وفي كل هذه الحالات نصل إلى المعرفة اليقينية ؛ ومن أمثلة ذلك : أن القرآن أخبرنا أن في الجنة أنهارا . . فهذه المعلومة جاءتنا من نقل صحيح ،

فالقرآن متواتر ، وهو في أعلى درجات الصحة . . وهذا يعد مصدرا كافيا لاستفادة هذه المعرفة بشكل يقيني ، فلا يقال : لا نتيقّن من هذه المعلومة إلا إذا وصلنا إليها من خلال الحس أو العقل .

ومن أمثلة ذلك أيضا : استدلال العلماء على وجود الإلكترون حول الذرة من خلال ملاحظة أثره ؛ وهذا اعتماد على مبدأ عقلي دون اشتراط المشاهدة الحسية للإلكترون .

ومن أمثلة ذلك أيضا : تيقّننا من وجود عالِم اسمه نيوتن -مثلا- من خلال الاعتماد على النقل الصحيح ، فهذا يكفينا حتى لو لم نر شخصه بعيوننا ، ولم تدل على وجوده عقولنا .

ومن الآثار الإيجابية التي تترتب على اتباع هدي الإسلام في مصادر المعرفة :

أولا : الاتساق مع النفس والفطرة ؛ ويظهر هذا من خلال اعتماد الإسلام العقلَ والنقل الصحيح كمصادر للمعرفة ؛ فالإسلام لا يدخل الإنسان في حالة من التنكر للبدهيات العقلية من خلال ادعاء التعارض بين الأمور المحسوسة وبين البدهيات العقلية .

كما أنه لا يجعل الإنسان متناقضا من خلال الأخذ بالنقل الصحيح في أمور لا مفر من اعتماده فيها ، ثم التنكر لهذا المصدر لأسباب فكرية خاصة .

ثانيا : توسيع قاعدة المعلومات ؛ ومما يبين هذا أن المسلم تمتد قاعدة المعلومات عنده لتشمل الغيب ، وذلك من خلال اعتماد النقل الصحيح كمصدر للمعرفة ، والأخذ بما أخبرنا به الوحي من أمر الآخرة ويوم القيامة .

ثالثا : البعد عن الخرافات : ويظهر هذا من خلال عدم اعتماد الإسلام الأمور الوهمية كمصادر للمعرفة ، كالتنجيم وادعاء الكشف والخيالات .

رابعا : الإجابة عن أصل من أصول الشبهات : ويظهر هذا من خلال عدم حصر الإسلام مصادر المعرفة في مصدر الحس والتجربة ؛ وذلك لأن هناك رزمة من الشبهات تقوم على هذا الأساس الباطل ، وهو حصر مصادر المعرفة في المصدر الحسي ؛ فإذا علم المسلم فساد هذا الأصل وبطلانه سقط الأساس الذي تقوم عليه مجموعة كبيرة من الشبهات .

هذه لمحة يسيرة عن مصادر المعرفة . . ولا شك أن القارئ بعد أن يقف على هذه اللمحة يتبين له أن امتلاك نظرة صحيحة عن مصادر المعرفة يشكل معلما أساسيا من معالم هوية المسلم .

الدين

مركزية التدين في حياة الإنسان

الدين الحق

هل الجنة للمسلمين فقط؟

هل اليهود والنصارى كفار؟

ماذا يترتب على كون دين الإسلام حقا في نفسه؟

تعظيم شعائر الله تعالى

مركزية الآخرة

هل يتعارض العلم التجريبي مع دين الإسلام؟

مركزية التدين في حياة الإنسان

من أهم الأمور التي ينبغي أن يدركها المسلم -بل كل إنسان- : أن التدين من أهم الغرائز التي غرزت في بني الإنسان غرزا ، وهو ضرورة فطرية لا يستغني الإنسان عنها أبدا ، ولا تستقر نفسه بدونها ، ولا يقوم له مجتمع بمعزل عنه .

ولذلك فإنك لو نظرت نظرة سريعة عبر تاريخ البشرية فلن تجد أمامك إلا شعوبا ومجتمعات متدينة بدين ، سواء أكان دينا صحيحا أم باطلا .

وقد عبر المؤرخ الإغريقي بلوتارك عن هذا المعنى في كلمة سائرة له فقال : «من الممكن أن نجد مدنا بلا أسوار ، وبلا ملوك ، وبلا ثروة ، وبلا آداب ، وبلا مسارح ، ولكن لم نجد قط مدينة بلا معبد يمارس فيه الإنسان العبادة» .

إن هذا الارتباط الضروري بين الإنسان والدين دفع بعض العلماء الماديين إلى البحث عن ما يمكن أن يسمى بـ"جين التدين" في الإنسان ، ودفع بعضهم إلى التفتيش عن عضو مسؤول عن التدين في الدماغ ، لعلهم يجدون تفسيرا ماديا لهذا الارتباط العجيب .

. . أنكر الملحدون وجود الله تعالى ، وحاولوا أن يقيموا كيانا إنسانيا بعيدا عن التدين ، وبعيدا عن الارتباط بمعبود ، ولكنهم لم

يستطيعوا أن يجدوا الطمأنينة ؛ فسعى كثير منهم إلى ملء ذلك الفراغ الروحي الذي يجدونه في نفوسهم ، عن طريق إقامة بعض الطقوس التي تتسق مع أفكارهم البعيدة أو المعادية للدين .

ومن ذلك : إنشاؤهم ما بات يعرف بـ (كنائس الإلحاد) والتي بدأت بالانتشار في دول ككندا وبريطانيا وأمريكا وغيرها .

ومن ذلك : إقامة الاحتفالات والأعياد لمناسبات إلحادية ، (كعيد ميلاد دارون) ، و(يوم الإلحاد العالمي) ، و(يوم الزندقة والكفر والتجديف) .

. . إن حالة الارتباط الإنساني بالتدين ليست ناشئة عن عدم وعي ، ولا ناتجة عن قصور في التفكير ، فالمجتمعات الغابرة لم يكن ينقصها ذلك ، بدليل ما شيدته وبنته من حضارات . . بل إن السبب في ذلك راجع إلى تكوين الإنسان وفطرته .

ولكن هذه الفطرة أو الغريزة لا بد من توجيهها التوجيه الصحيح ، وذلك بالتدين بالدين الحق . . فالدين الحق ، الذي لم يتعرض للتحريف على أيدي البشر ، هو الذي يؤتي ثمار التدين كاملة ، وهو الذي يبني الإنسان ، وهو الذي يبني المجتمعات الصالحة .

نحن هنا لا ننكر أن هذه الغريزة قد استُغلت على أيدي الأشرار عبر الأزمنة الطويلة ؛ فأولا : استغل الشيطان هذه الغريزة ليصرف بني البشر إلى عبادة الأصنام والشهوات . . واستغلها المتجبّرون

لإخضاع الشعوب . . واستغلها بعض رجال الدين الفاسدين لتحصيل المال والجاه . .

ولكن الاستغلال السيء للشيء الصحيح لا يعني أنه أصبح باطلا . . ولا يسُوغ لنا ترك الحق لأن هناك من استغله استغلالا باطلا ، بل يجب علينا إظهار الصورة الناصعة للدين الحق .

وإذا كانت تلك الشرور قد ارتكبت عن طريق الاستغلال السيء للدين ، فإن أضعافها من الخير والهدى قد وُجدت في البشرية على أيدي أنبياء الله الصادقين ، الذين أنشؤوا أمما مستقيمة ، وحضارات عظيمة ، وأقاموا العدل بين الناس ، وجاؤوا بتشريعات عملية تكفل ذلك للبشر . . ولكن الطغاة -في كل زمان- هم الذين جاروا وظلموا ، وهم الذين قهروا الشعوب ، وهم الذين حرفوا الدين .

فالذي نريده من خلال ما تقدم : أن نكون على وعي بمركزية الدين في حياة الإنسان ، وأن ميل الإنسان نحو التدين لا ينفعه إلا إذا اتبع الدين الحق . . فحمى بذلك نفسه من أن يكون فريسة للأشرار . ونريد من خلال ما تقدم كذلك رفع إشكال قد يتبادر إلى بعض الناس حول مدى أهمية الدين بسبب استغلال المجرمين لهذه الفطرة الإنسانية .

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [الروم : ٣٠] .

الدين الحق

موقف المسلم من الأديان الأخرى من أهم ما يميز هويته . . ومع أن هذه القضية تعد من القضايا العقدية الخطيرة إلا أنه دخلت عليها إشكالات لدى كثير من المسلمين ؛ وسبب ذلك يرجع إلى عدة عوامل ، من أهمها : الجهل وضعف التدين ، والهزيمة النفسية الناشئة عن ضعف المسلمين ، والأفكار الليبرالية التي تُبث في الناس بطرق كثيرة .

وعادة ما يثار هذا الموضوع عن طريق طرح بعض الأسئلة المحمّلة بحمولة فكرية غربية ؛ مثل : هل اليهود والنصارى كفار؟ هل المسلمون فقط سيدخلون الجنة؟ . . وكثيرا ما يشتبه هذا الموضوع بمواضيع أخرى كموضوع التعامل مع غير المسلمين ، ويفهم بعض الناس خطأ أنه يلزم من تكفير غير المسلمين أن نقتلهم .

ويصاغ هذا الموضوع أحيانا كثيرة من قبل أصحاب الفكر الغربي بصياغة فيها إرهاب فكري ، بحيث يوهمون المسلم أنه إذا كفّر غير المسلمين فإنه يرتكب أمرا عظيما .

وقد أضحى هذا السؤال محلا لتصنيف المسلمين عند الغرب ، فمن "تسامح" ولم يكفر غير المسلمين فهو معتدل ، ومن كفّرهم فهو إرهابي .

وسوف نحاول تغطية شيء من هذا الموضوع من خلال ثلاث محاور : الأول : مقدمة أساسية لا بد منها ، وهي أن دين الإسلام هو وحده الدين الحق . الثاني : الإجابة على سؤال : هل الجنة للمسلمين فقط؟ . الثالث : حول بعض الشبهات بالنسبة لتكفير اليهود والنصارى .

والكلام هنا عن المحور الأول ، وهو الأساس الذي ينبغى أن يقيم المسلم عليه حياته وتصوره عن الأديان الأخرى ، وهو الأساس الذي ينبغي للمسلم استحضارُه عند التعامل مع بعض الشبهات المتعلقة بالأحكام الحدود الشرعية ، كالجهاد وعقوبة الردة وغيرها .

هذا الأساس هو : أن الدين الحق هو دين الإسلام فقط ، وأن ما سواه من الأديان المحرفة باطل ، وأنه لا يقبل من أحد غير الإسلام بعد بعثة سيدنا محمد ﷺ ، وأن دين الإسلام ليس كغيره من الأديان والأفكار ، بل هو الرسالة الأخيرة من الله تعالى إلى خلقه . . رسالة عليها أدلة واضحة ، وبراهين قاطعة ، لم تنل يد التحريف منها . . مع كثرة المبطلين .

وفهم هذا الأصل يقوم على أمرين :

الأمر الأول : معرفة صحة أدلة نبوة محمد ﷺ ، ومعرفة أن على ذلك دلائل ساطعة قوية مشتهرة .

الأمر الثاني : معرفة الأدلة الخاصة التي نصت على أن دين محمد ﷺ هو الدين الخاتم ، الذي لا يقبل الله تعالى غيره .

أما الأمر الأول فتطلب أدلته من مظانها ، وهي كثيرة جدا .

وأما الأمر الثاني ، فعليه أدلة قطعية ، منها قوله تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران : ٨٥] ، وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾ [البقرة : ١٣٧] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران : ١٩] ، وقال ﷺ : «و الذي نفس محمد بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ، لا يهودي و لا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار» [أخرجه مسلم] . . إلى غيرها من النصوص التي تؤكد هذا المعنى الذي أجمع عليه المسلمون .

ومن سلّم بهذين الأمرين ، سهل عليه فهم المسألة ، وعلم مكانتها وخطورتها .

هل الجنة للمسلمين فقط؟

هذا السؤال من الأسئلة المتداولة في الفضاء الفكري ، وهو مرتبط بشكل مباشر بالحديث عن صحة دين الإسلام ، وعن كونه الدين الحق ، كما أمه مرتبط بتعظيم شعائر الله تعالى في قلب المسلم صاحب الإيمان الراسخ .

إلا أن أصحاب الفكر الغربي -الذي لا يقيم للأديان وزنا- يحرصون على طرح هذا السؤال لا سيما في أجواء الهزيمة النفسية التي تعشيها فئات من المسلمين . . سؤال يُطرح بهدف هز عقيدة المسلم والتلاعب في موقفه الديني من غير المسلمين .

والواقع المؤسف أن مُنشِئي هذا السؤال قد عرفوا في أي مرحلة يطرحون هذا السؤال . . فإنهم لطالما روجوا دعوات عدم تكفير اليهود والنصارى ، وطالما روجوا ما يسمى بالوجه الإنساني للغرب ، سواء أكان على صعيد الأفراد ، أم على صعيد الدول ، وطالما هزوا ثقة المسلمين بأنفسهم من خلال عقد مقارنات حضارية وتكنولوجية وثقافية بين المسلمين وبين الغرب ، محاولين من خلالها إثبات أن الغرب نموذج فريد من البشر ، لا يستطيع الإنسان المسلم أن يرتقي إليه .

وقد حرصوا على أخذ كلام من بعض من يتمسحون بالعلم الشرعي حول عدم تكفير اليهود والنصارى ، تحت شعارات التسامح وقبول الآخر ، حتى وصل الحال ببعضهم إلى الكف عن وصف مشركي قريش بأنهم كفار . . في مشهد يعيد إلى الذهن صورة أحبار بني إسرائيل وهم يحرفون دين الله تعالى لأجل الدنيا .

أقول : في ظل هذه الحرب الفكرية ، والتي سُبقت واقترنت بالحروب العسكرية ، والتي أضعفت عقيدة الولاء والبراء في نفوس الناس . . جاء هذا السؤال المدروس بطريقة نفسية ، ليَرِد على نفوس تتردى ما بين الجهل والإحباط والخجل من هذا الدين .

إذا عملت -أخي القارئ- ما تقدم ، فلا يرهبنك هذا السؤال . . إن الإشكال الحقيقي ليس هو ظاهر هذا السؤال ، بل الإشكال أعمق من ذلك . . إشكال يحمل معه لب الثقافة الغربية التي لا ترى أي مكانة للدين في حياة البشر .

أما إجابة السؤال بشكل مباشر ، فإن نصوص الإسلام بينت أن الذين يدخلونها صنفان :

- المسلمون ، ونقصد بالمسلمين هنا كل من اتبع نبيا من الأنبياء ، بشرطين : أن لا يكون هذا الإنسان واقعا في التحريف ،

وأن يكون اتّباعه ذلك النبي قبل بعثة النبي محمد ﷺ ؛ لأنه بعد بعثته ﷺ لا يقبل عند الله تعالى إلا متابعته .

- والصنف الثاني الذين قد يدخلون الجنة : هم الناس الذين لم تصلهم رسالة رسول بشكل صحيح ، وكانوا معذورين عند الله تعالى .

فهذا جواب السؤال باختصار . . ولكن من المهم هنا أن نعدل قليلا في صيغة السؤال ، حتى نقف على الأصل الذي تقوم عليه هذه المسألة ، والسؤال هو : **ما الأساس الذي يدخل عليه الإنسان الجنة؟**

ومن البدهي أن تكون الإجابة : إن الذي يريد أن يدخل الجنة التي خلقها الله تعالى فلا بد أن يكون طائعا له ، مُرْضيا له ﷻ .

والأعمال الصالحة التي يمكن أن يقوم بها الإنسان كثيرة جدا ، ما بين عبادة ، أو إحسان إلى الفقراء والمساكين أو مساعدة الناس . . لكن هل كل عمل مقبول عند الله تعالى؟ وهل نحن نتقرب إلى الله تعالى كما نشاء نحن ، أو كما يشاء هو سبحانه؟

الإجابة الفطرية العقلانية : بل كما يشاء هو سبحانه .

حسنا! إذا كنا نتقرب إليه كما يشاء فإن الله تعالى لا يقبل أي عمل صالح إذا لم يكن أساسه التوحيد ، فمهما كثرت الأعمال

الصالحة فإنها لا تنفع عند الله تعالى إذا لم يكن صاحبها موحدا لله تعالى ، كافرا بكل ما يُعبَد من دونه ، متابعا أنبياءَه ورسلَه .

وهذا الأصل دل عليه الوحي ، ودل عليه العقل . . أما الوحي فقد أخبرنا الله تعالى أنه لم يقبل نفقات المنافقين بسبب كفرهم ، فقال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة : ٥٤] ؛ فمع أن النفقة عمل صالح لكن الله تعالى لم يقبلها ، ولم يعطهم عليها الثواب لأنهم كفار ، ولم يحققوا الأساس الذي تقبل عليه الأعمال . .

ومن الأدلة على هذا قوله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف : ١١٠] ؛ فجعل عدم الشرك مع وجود العمل الصالح شرطا للعمل الذي ينفع في الآخرة .

وها هو النبي ﷺ يخبِر بأن ابن جدعان ، وقد كان مكثرا من أعمال البر . . يخبِر أنه من أهل النار ؛ لأنه لم يقل يوما : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين [أخرجه مسلم] .

ويخبر عن عمه أبي طالب أنه من أهل النار ؛ لأنه مات على الكفر ، [أخرجه البخاري ومسلم] مع أنه حمى النبي ﷺ ودافع عنه .

وأما العقل فإنك لو كنتَ صاحب مصنع ، وكلفت عاملا عندك بعمل مهمّ ، وقلت له : ابذل جهدك وأريد أن تنجز لي هذا العمل بإتقان . . فذهب هذا العامل وشغل نفسه بعمل آخر ، وبذل جهده وتعب فيه ، فهل ستقبل منه؟ وهل ستكون مسرورا بما فعل؟ . . بالتأكيد لا .

وهكذا كل عمل صالح يكون صاحبه كافرا ، فإنه غير مقبول عند الله تعالى ، ولا يثاب صاحبه في الآخرة ، ولا يكون سببا لدخوله الجنة .

فالكافر لم يقدر الله حق قدره ، ولم يعظّمه حق التعظيم ؛ لأن هذا الكافر إما ألا يؤمن بوجود الله تعالى كالملاحدة والدهريين .

إما أن يكون مؤمنا بوجود الله تعالى لكنه يجعل معه آلهة أخرى ، كحال اليهود والنصارى ومشركي قريش ، بل هذا أكثر شرك الأمم . . وكفى بهذا انتقاصا لله تعالى . . وقد يزيد بعض الكفار على ذلك فيصفون الله تعالى بالعيوب والنقائص كما فعل اليهود .

كما أن تكذيب رسل الله الصادقين ، مع ظهور براهين صدقهم هو نوع من عدم تعظيم الخالق سبحانه .

فكل هؤلاء لا يقبل الله منهم أي عمل صالح ، لأنهم لم يحققوا الأساس الذي تقبل عليه الأعمال كما تقدم .

ولكن هل في هذا ظلم؟

لا ظلم في هذا ؛ ويوضح هذا أمران :

الأمر الأول : أن الله تعالى قد طلب منا مطلوبا أساسيا ، وأخبرنا أن الأعمال الصالحة لا تقبل بدونه ؛ فمن ترك هذا الأصل ، واشتغل بالأعمال الصالحة فإنه لم يأت بالمطلوب منه ؛ فلا يستحق دخول الجنة .

الأمر الثاني : أن الله تعالى يجزي هذا الكافرِ على هذه الأعمال في الدنيا ، فيعطيه من المال والصحة والقوة أو الذكر الحسن ما يكون جزاءَه وثوابَه في هذه الدنيا .

أما حال الأمم السابقة فهو جارٍ على هذا الأصل ؛ فمن كان منهم موحدا ، متابعا لنبيه في وقته كان مسلما ومن أهل الجنة ، وهؤلاء الذين أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة : ٦٢] .

وهذا يقال في كل من كان موجودا قبل بعثة النبي محمد ﷺ ، وأما بعد بعثته ﷺ فلا يقبل عند الله تعالى إلا التوحيد مع اتباعه عليه الصلاة والسلام ؛ لأن الله تعالى جعل رسالة محمد ﷺ خاتمة الرسالات ، وجعلها ناسخة لما قبلها ، كما قال تعالى :

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة : ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران : ٨١ ، ٨٢] .

وقال النبي ﷺ : «والذي نفس محمَّد بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهوديٌّ ، ولا نصرانيٌّ ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرْسِلْتُ به إلاَّ كان من أَصحاب النار» . [أخرجه مسلم] .

هذا فضلا عن وقوع التحريف في كتب اليهود النصارى ؛ والآيات التي أخبرتنا بهذا التحريف معروفة ، ومنها قوله تعالى : ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء : ٤٦] .

وتتميما للفائدة هنا فمن المهم أن نقف على الأبعاد الحقيقية لهذا السؤال . . فمن خلال بعض الإجابات التي نسمعها فإن بعض الناس كانوا يقولون : إن أهل الديانات السماوية يدخلون الجنة . وبعضهم يقول : كل من يعمل الأعمال الجيدة سوف يدخل الجنة . . لكن إذا رجعنا إلى طبيعة من أنشأ هذا السؤال . . فهل

هذه الإجابات مرضية مقبولة بالنسبة له؟ وبمعنى أوضح : هل تتفق هذه الإجابات مع النموذج الغربي الحالي ، والذي من أهم مكوناته : "حرية العقيدة"؟ هل سيقبل منك أن الملحد –مثلا– لن يدخل الجنة؟

وبمعنى أقرب : هل وجود الجنة يمثل "فكرة" مقبولة في ظل الحضارة المادية التي لا تؤمن إلا بالمحسوسات ، ولا تؤمن بالغيب ، بل الغالب عليها الإلحاد؟... إذا استثنينا أولئك الذين يقلدون غيرهم في طرح هذا السؤال ، فنستطيع أن نقول : إن جملة من الذين يطرحون هذا السؤال لا يؤمنون أصلا بالجنة ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . . وهدفهم هو زعزعة عقيدة المسلم ، بضرب هذه المنطقة الحساسة الهشة عند كثير من الناس .

وختاما . . لا نجد مناصا من أن نبين أن هذا "السؤال" ليس مجرد سؤال تُطرح فيه وجهة نظر ، وليست هذه المسألة محلا لـ"الاجتهاد" ، بل هي مسألة من أساسيات العقيدة ، التي لا يصح الإيمان إلا بها ، لأنها من المسائل التي نطق بها القرآن بشكل واضح وصـــــــــــريح : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران : ٨٥] . .﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران : ١٩] .

هل اليهود والنصارى كفار؟

هذا السؤال يعد -كالسؤال السابق- من أكثر الأسئلة التي تثار من قِبل المتأثرين بالفكر الغربي ، وهو من الأسئلة التي يصنّف المسلم على أساسها عند أصحاب تلك الأفكار ؛ أهو "متشدد" أم "معتدل" . . والحقيقة أن هذا السؤال سؤال مركزي ؛ فإذا كان هذا السؤال يشكل معيارا لتصنيف المسلمين لدى الغرب ، فإنه يشكل معلما من أهم معالم هوية المسلم ، وثابتا من أهم ثوابت دين الإسلام .

والمراد هنا تعريف المسلم بأدلة الكتاب والسنة التي دلت على كفر اليهود والنصارى ، مع الإجابة على أبرز الشبهات حول هذه المسألة .

فمن أدلة الكتاب والسنة التي دلت صراحة على كفر اليهود والنصارى ، قوله تعالى : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة : ٧٣] ، وقوله : ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة : ٧٢] ، وقوله : ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة : ١] ، وقوله : ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ

دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ [المائدة : ٧٨] . وقول النبي ﷺ «والذي نفس محمَّد بيده ، لا يسمع بِي أحدٌ من هذه الأمَّة يهوديٌّ ، ولا نصرانيٌّ ، ثم يموتُ ولم يؤمن بالذي أُرْسِلْتُ به ، إلا كان من أَصحاب النَّار» [أخرجه مسلم] .

ومن ذلك أيضا : الأدلة العامة التي تدل على كفر من ليس مسلما ، كقوله تعالى : ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران : ٨٥] ، وقوله : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران : ١٩] ، وقوله : ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾ [البقرة : ١٣٧] .

وعلى هذا إجماع المسلمين .

ولكن مع ذلك فقد حرص بعض الناس على إثارة شبهات عدة متعلقة بهذه المسألة ، ومن أشهر هذه الشبهات :

الشبهة الأول : كيف تكفّرون اليهود والنصارى وقد سمّاهم الله أهل كتاب؟

الجواب : أن تسميتهم أهل كتاب لا تعني أنهم ليسوا كفارا ؛ فالله تعالى سماهم أهل كتاب لأنه أنزل عليهم كتبا ؛ فأنزل التوراة على موسى لليهود ، وأنزل الإنجيل على عيسى للنصارى ؛ ولكنهم

حرّفوها وما استقاموا عليها ؛ فكان في تسميتهم أهل كتاب -مع اختلافهم وتفرقهم وانحرافهم عن كتبهم- إشارةٌ إلى ذمهم ؛ فإنهم لم يستقيموا مع أن الله أنزل إليهم كتبا ، كما قال تعالى عنهم : ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الشورى : ١٤] ، وقال : ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝٤﴾ [البينة : ٤] .

الشبهة الثانية : كيف تكفّرون اليهود والنصارى وقد أباح الله لنا الزواج منهم ، وأباح أكل ذبائحهم؟

الجواب : أن إباحة الأكل من ذبائحهم والزواج منهم لا تعني أنهم ليسوا كفارا ، فالله تعالى هو الذي كفّرهم في كتابه ، وهو الذي أباح لنا الزواج منهم ، استثناء لهم من عموم الكفار في هذه المسألة ، وليس في الحكم بكفرهم .

الشبهة الثالثة : عمر رضي الله عنه عاهد نصارى القدس فيما يعرف بالعهدة العمرية ، وسمح لهم بممارسة شعائرهم ، وهذا يدل على عدم كفرهم .

الجواب : أن هذا لا يدل على عدم كفرهم ؛ لأن العهد مع أهل دين شيء . . والموقف من صحة دينهم شيء آخر تماما ، فالأول

يتعلق بالمعاملة ، والثاني يتعلق بالاعتقاد . . والخلط بينها نوع من المغالطة .

كما أن هناك فرقا بين السماح بممارسة العبادة الشركية داخل الكنيسة وبين الرضا بها ، وعدم اعتقاد كفر صاحبها .

وعمر رضي الله عنه في هذه العهدة كان عاملا بقوله تعالى : ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة : ٢٩] . . فتأمل كيف جعلت الآية ذلك الإيمان المزعوم عدما ، لأنه شرك به سبحانه ، وذلك في قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ .

الشبهة الرابعة : أهل الكتاب من اليهود والنصارى مشركون وليسوا كفارا .

الجواب : الشرك نوع من أنواع الكفر ، ويكون باتخاذ معبود مع الله سبحانه ، تصرف له العبادة بأي صورة من صورها .

والنصارى زعموا أن عيسى ابن الله ، فوصفوه بصفات الألوهية والربوبية وعبدوه من دون الله ، وصرفوا العبادات كذلك لرهبانهم . . والله تعالى حكم بكفرهم لأجل هذا فقال : ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة : ٧٣] ، وقال عنهم : ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ

وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة : ٣١] .

الشبهة الخامسة : الله تعالى ذكر احتمال نجاة من آمن بالله واليوم الآخر من اليهود والنصارى ، وذلك في قوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة : ٦٢] . . فكيف تكفرونهم؟!

الجواب : أن الأدلة المُحْكَمة الصريحة الواضحة دلت على كفر اليهود والنصارى كما في قوله : ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ﴾[المائدة : ٧٢] ، وقوله : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[المائدة : ٧٣] وغيرها هذه الأدلة . . أما هذه الآية فإنها تتحدث عن من بقي على التوحيد ولم يقع في تحريف الدين من اليهود والنصارى قبل بعثة النبي محمد ﷺ .

وأما بعد بعثته فلا يقبل عند الله تعالى إلا اتباعه عليه الصلاة والسلام ، لأن الله وصف القرآن بأنه مهيمن على الكتب السابقة ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ

وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] ، وقال عليه الصلاة والسلام : «والذي نفس محمَّد بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمَّة يهودِيٌّ ، ولا نصرانيٌّ ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرْسِلْتُ به ، إلا كان من أَصحاب النَّار» [أخرجه مسلم] .

الشبهة السادسة : اليهود والنصارى يقرّون بوجود الله فهم ليسوا كفارا إذن .

الجواب : أن الكفر ليس منحصرا في إنكارا وجود الله تعالى ، بل إن من أنكروا وجود الله تعالى عبر التاريخ كانوا قلة ، وغالب كفر الأمم المكذّبة للرسل كان بالشرك ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴿٤٢﴾﴾ [الروم : ٤٢] .

وأبرز معالم كفر كفار قريش هو الشرك بالله سبحانه . . لقد كانوا يقرون بوجود الله تعالى ، كما قال تعالى :﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[الزخرف : ٨٧] ، ولكنهم كانوا يتخذون آلهة تقربهم إلى الله تعالى وتشفع لهم عنده ، كما قال تعالى عنهم : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر : ٣] .

وهذا هو سبب كفرهم مع إقرارهم بوجود الله تعالى .

الشبهة السابعة : تكفير اليهود والنصارى هو قول المتشددين فقط ، وهم شاذّون عن الأمة الإسلامية في ذلك .

والجواب : أن تكفير اليهود والنصارى ليس قول من يوصفون بالمتشددين ، بل هو قول الفرق الإسلامية كلها ، لم يخالف في ذلك مسلم على مر العصور . . وما ظهر هذا القول إلا بعد تغلب النصارى على المسلمين في هذا الزمان ، وبسطوا ونشروا ثقافتهم بين المسلمين .

الشبهة الثامنة : تكفير النصارى يؤدي إلى ظهور العمليات الإرهابية التي تقتلهم ، وقد عصم الله دماءهم .

الجواب : أن التكفير شيء ، واستحلال الدماء والقتل شيء آخر ، فالشريعة التي حكمت بكفرهم ، قد أمرتنا بحفظ دماء أهل الذمة والأمان والعهد منهم ، كما قال النبي ﷺ : «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة» [أخرجه البخاري] .

وقد عاش النصارى عبر العصور تحت ظل دولة المسلمين بأمن وأمان ، ولم يتعرض لهم أحد ، مع أن المسلمين جميعا كانوا يعتقدون كفرهم .

الشبهة التاسعة : الله تعالى أمر ببر أهل الكتاب والإحسان إليهم ، كما قال : ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ﴾ [الممتحنة : ٨] .

والجواب : أن البر والمعاملة الحسنة ليسا مرتبطين باعتقاد صحة دين الإنسان بالضرورة ؛ فالمعاملة الحسنة الظاهرة بهدف تحبيب الكفار في الدين الحق شيء مطلوب ؛ ولكن ليس لهذا علاقة بعقيدتك فيهم . . وانظر كيف فرّق النبي ﷺ بين الأمرين لما زار جاره اليهودي ودعاه إلى الإسلام ، فأسلم اليهودي ثم مات ، فقال النبي ﷺ : «الحمد لله الذي أنقذه من النار» [أخرجه البخاري] ، فقوله : «الذي أنقذه بي من النار» يدل على أن ذلك اليهودي كافر وأنه كان سيدخل النار لو أنه مات على كفره ، وهذا لم يمنع النبي ﷺ من زيارته ودعوته إلى الإسلام . . وهذا هو التسامح الذي يدعوا إليه الإسلام .

ماذا يترتب على كون دين الإسلام حقا في نفسه؟

من المعلوم أن المسلم لا يصح إسلامه إلا إذا اعتقد أن دين الإسلام حق مطلق ، وأنه صحيح في نفسه ، ولا يكتسب صحته من مجرد إيمانه أهله به ، فليست صحة دين الإسلام مسألة نسبية .

وقد دلت أدلة متعددة من النصوص الشرعية على هذا ، كقوله تعالى : ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾ [البقرة : ١٣٧] ، وقوله : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران : ٨٥] .

ومما يترتب على هذا الأصل :

أولا : أن يعتقد المسلم أن الإسلام هو المعيار الذي توزن به الأديان والأفكار المخالفة ، فما خالفه من الأديان والأفكار فهو باطل ، وبناء على ذلك فلا يعترف المسلم بصحة الأديان الأخرى ، أو الأفكار المصادمة لدين الإسلام ، بل يلزم الحكم عليها بالخطأ والبطلان .

وبعض الناس هنا يخلط بين الحديث عن وجهة نظر أهل الأديان أو الأفكار الباطلة فيما يعتنقون ، وبين الحكم الموضوعي عليها ؛

فيقول : كل أهل دين يعتقدون أن دينهم صحيح . . والخلل في هذا الطرح هو في نقل الحديث من الحكم الموضوعي على الدين أو الفكر إلى الحديث عن وجهة نظر صاحب كل دين أو فكر ؛ فمن المعلوم أن كثيرا ممن يعتنقون الباطل يرون صحة ما يعتنقون ؛ ولكن السؤال هنا : هل ما يعتنقونه صحيح في ذاته أو لا؟ والإجابة هي أن هذه الأديان أو الأفكار المخالفة للإسلام باطلة في ذاتها ، بغض النظر عن قناعة أصحابها . . هذه هي الإجابة التي تتسق مع اعتقاد المسلم بصحة الإسلام . . وإدراكُ هذه النقطة يساهم بشكل كبير في إخراج الإنسان من حالة النسبية في التعامل مع الأديان إلى وجود ميزان واضح ، وفكر متزن ، وشخصية ذات معالم فيما يتعلق بالدين .

ويلزم من ذلك أن يعتقد المسلم أن دين الحق هو الدين يجب أن يدين به الناس كلهم ، وأنه يحب عليهم أن يتركوا أديانهم الباطلة .

وأما خلق الله تعالى للناس مختلفين في أديانهم فإن هذا لا يعني أنه يَقبل منهم هذه الأديان ، بل وجود الأديان الباطلة له حِكم تترتب عليه ؛ كالابتلاء وتمييز الطيب من الخبيث . . ووجودُها كوجود سائر الخصال الذميمة من القتل والبخل وسوء الأخلاق ؛ فكما أننا لا نعد وجودها في الواقع دليلا على مشروعيتها أو صحتها أو قبولها فكذلك وجود الأديان الباطلة لا يعني صحتها أو قبولها .

ويُنبّه هنا إلى أنه لا يلزم من عدم الاعتراف بصحة الأديان المخالفة لزوم قتل كل من دان بها ؛ فالكلام هنا على مستوى الاعتقاد ، وأما التشريعات العملية فلا تلازم بينها وبين هذا التقرير ، وإن كان لها صلة به .

ثانيا : أن يسلم أن الإسلام يحق له من التصرفات والتشريعات ما لا يحق لغيره من الأديان والأفكار الباطلة ، فالإسلام -بصفته الدين الحق- ليس محل مقارنة مع الأديان الأخرى .

فلا يقال -مثلا- : لماذا يحق للإسلام للإسلام الدعوة في بلاد الكفار ، ولا يحق للكفار نشر دعوتهم في بلاد المسلمين؟ ولا يقال : لماذا يحق للإسلام قتل من يرتد عنه ، ولا يحق ذلك للأديان الأخرى؟ ولا يقال : لماذا يكون جهاد المسلمين حقا ، وقتال غيرهم من الأمم باطلا؟ ولا يقال : لماذا يحق للرجل المسلم الزواج من الكتابية ، ولا يحق الكتابي الزواج بمسلمة؟

وهذا طبعا لا يعني أنه لا يوجد حِكم أخرى لمثل هذه الأحكام الشرعية ، ولكن لا بد من مراعاة هذا الأساس أولا .

ثالثا : أن الإسلام يحق له أن يستخدم القوة لإزالة العوائق التي تحول بينه وبين الناس ؛ وذلك لأن الناس تختلف مصالحهم وأهواؤهم ، وبعضهم قد يعرف الحق ولكنه يستمر في الصد عنه دفاعا مصالحه من مال أو رئاسة أو نحو ذلك .

ولما كان دين الإسلام دينا واقعيا ، ولما كان المسلمون مأمورين بالأخذ بالأسباب ، فقد شرع الله تعالى للمسلمين القتال لنشر الدين الحق .

كما أن هدف نشر دين الإسلام وعزة المسلمين يلزم منه أن تكون أمة الإسلام هي الأمة الغالبة المسيطرة على غيرها من الأمم ؛ لأن من سنة الله تعالى في خلقه أن تكون دولة أو مجموعة من الدول مسيطرة على العالم ، ناشرة لدينها أو ثقافتها فيه . . وأمة الإسلام هي صاحبة هذه المكانة ، لأنها تحمل الدين الحق ، ولأنها إن لم تكن في الموقف الغالب كانت في القسم المغلوب المسيطر عليه ضرورة ، وهذا له أثر على انتشار الدين الحق .

هذه نقاط أساسية ومركزية ينبني التصور الصحيح لها على ذلك الأصل العظيم ، وهو اعتقاد أن دين الإسلام هو الدين الحق .

تعظيم شعائر الله تعالى

إذا علم المسلم أهمية التدين بدين الحق ، وعلم منزلة هذا الدين ، فإن من لوازم ذلك أن يعظم المسلم شعائر الله تعالى .

والمقصود بتعظيم شعائر الله تعالى : أن يكون لعقائد الإسلام وأحكامه مكانةٌ كبيرة في قلب المسلم وكيانه . . وهذا ينتظم أمورا ، من أهمها :

أولا : أن يكون لاتباع دين الإسلام مكانة كبرى في قلب المسلم ؛ فالمسألة ليست مسألة نسبية ، ولا خاضعة لأهواء الناس ، وليست محلا للاجتهاد ووجهات النظر .

فمن علم براهين دين الإسلام ، وقرأ القرآن الذي يحكم بالكفر والهلاك في الآخرة على غير المسلم ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران : ٨٥] . . من يعلم ذلك فإنه لا يمكن أن يجمع معه القولَ بتصحيح الأديان أو المذاهب الفكرية المخالفة لدين الإسلام ، أو القول بأنها تكون سببا للنجاة في الآخرة .

ثانيا : أن يغضب المسلم إذا انتُهِكَت محارم الله تعالى ؛ فالشرك وسب الله تعالى ، والتنقص من الأنبياء ، والزنا ، وترك تحكيم الشريعة ، والتبرج . . هي منكرات ينكرها المسلم بقلبه ، ولسانه ،

ويده إذا استطاع ذلك . . ولا يدخل انتهاك مثل هذه المحرمات في حرية شخصية ، ولا آراء اجتهادية .

ويلاحظ هنا أن جزءا من تفسير حالة تمييع الدين تحت شعار الخلاف الفقهي . . جزء من تفسير هذه الحالة يعود إلى عدم تعظيم شعائر الله تعالى ؛ فمن يقبل بالكفر أو انتهاك الحرمات بدعوى الخلاف أو التسامح ، لا يقتصر الخلل عنده في الغالب على الجانب الفكري ، بل يكون تعظيم شعائر الله تعالى غائبا عن فكره .

ثالثا : أن يكون الانتماء إلى دين الإسلام حاضرا في حياة المسلم ؛ فعلى أساس الإسلام يحب ويبغض ، وعلى أساسه يوالي ويعادي ، وعلى أساسه يقيّم الدول والتجمعات ، وعلى أساسه يتخذ مواقفه . . لا يقدم على الإسلام نظرة وطنية ، أو قومية ، أو حزبية ضيقة ، أو مصلحة سياسية غير معتبرة .

رابعا : الحرص على الالتزام على الصعيد الشخصي بهدي الإسلام وأحكامه . . أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ، وإظهارا لشعائره وعباداته ، وتضامنا مع قضايا المسلمين ومظالمهم .

إن تعظيم شعائر الله تعالى يعد من أهم معالم تزكية النفس ، وهو مكون أساسي من مكونات هوية المسلم ، كما قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [الحج :

٣٢] . . إن تعظيم شعائر الله تعالى سبب لتحصيل الخير . . خير في الدنيا وخير في الآخرة . . خير للفرد وخير للدول . . ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الحج : ٣٠] .

مركزية الآخرة

المراد بمركزية الآخرة : أن يكون للآخرة دور أساسي ومحوري في تفكير المسلم وحياته ؛ فالإيمان بالآخرة هو أحد الأركان التي يتشكل منها إيمان المسلم ؛ وهذا لا بد أن يكون له أثر على كيان المسلم وتفكيره .

إن من أهم ما يميز الدين الحق ، وهو الإسلام أنه يربط المسلم بالآخرة بشكل كبير . . ومن يتأمل كثيرا من آيات القرآن يجد الإيمان بالآخرة مقترنا مع الإيمان بالله تعالى ، كما في قوله تعالى في سياق الأمر بالرجوع إلى الكتاب والسنة عند الاختلاف : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء : ٥٩] ، وقال في سياق عمارة المساجد : ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ [التوبة : ١٨] ، كما نجد هذا الاقتران ضمن عدد من الآيات التي تتحدث عن الالتزام بالأحكام الشرعية . . وفي ذلك كله إشارةٌ إلى مكانة الإيمان باليوم الآخر بالنسبة لإيمان المسلم ، كما أن فيه

إشارة إلى أن الإيمان باليوم الآخر من أكثر الأمور التي لها تأثير في سلوك المسلم وفكره .

ومن أهم القضايا التي يظهر تأثير مركزية الآخرة فيها عند المسلم :

أولا : نظرته إلى الدنيا ؛ فالمسلم ينظر إلى الدنيا على أنها دار مؤقتة ، وأن الحياة الحقيقية هي في الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت : ٦٤] .

ولذلك فإن المسلم الذي يتعرض إلى بلاء من مرض أو فقر أو غير ذلك ، فإنه لا يقع في اليأس والقنوط ، لأنه يعلم أن هذه الدنيا زائلة ، وأن الحياة الحقيقية في الآخرة ، فكيف ومنزلته ترتفع فيها بما يلقاه من البلاء صابرا محتسبا؟!

ثانيا : عمارة الأرض : فمع أن المسلم ينظر إلى الآخرة على أنها الحياة الحقيقية إلا أنه يعمر الدنيا ويبنيها ، ولا يتركها خرابا . . ولكن إيمانه بالآخرة يؤثر على هذه العمارة من جهات ، ومنها :

١- الهدف من عمارة الأرض ؛ فهدف المسلم من عمارة الأرض هو جعلها مكانا يطاع فيه الله تعالى ، ويطبق فيه شرعه ؛ فالمسلم لا يعمر الأرض لأجل عمارة الأرض وإنما ليتمكن من إقامة شرع الله

فيها ، بما في ذلك من تعظيم لله تعالى وعبادات وعدل ورحمة ، كما قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾[الحج : ٤١] .

٢- التقيد بأوامر الله تعالى في عمارة الأرض ؛ فالمسلم يتقيد بحدود في عملية عمارته للأرض ؛ وهي حدود الحلال والحرام ؛ فما كان من عمارة الأرض محرما ، كبناء الاقتصاد على الربا وأكل أموال الناس بالباطل فإنه يتركه . . ويبني حضارته بتلك السمة المميزة ، وهي العبودية لله تعالى وطاعة أوامره ، كما قال تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور : ٥٥] .

٣- تقييمه للحضارات ؛ أي أن المسلم يقيم الحضارات السابقة والحاضرة بناء على استجابتها لأمر الله تعالى ؛ فالحضارة التي تعادي الخالق ، وتنشر الفساد ، وتعتدي على العباد ، فهي حضارة مذمومة ولو ملأت الأرض بناء وأموالا وقوة . . وكم في القرآن من حكاية أحوال حضارات قوية متقدمة بالمعايير الدنيوية ، ما كان تقدمها إلا وبالا عليها ، وما كان نصيبها إلا الذم والتحذير من السير

على خطاها في العصيان ، كما قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر : ٢١] ، وقال : ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران : ١٩٦-١٩٧] .

ثالثا : الالتزام بالأحكام الشرعية وحفظ حقوق العباد ؛ فاعتقاد المسلم أن كل ما يفعله في الدنيا الفانية يلقى حسابه في الحياة الأبدية له أعظم الأثر في التزامه بالأحكام الشرعية ، وله أعظم الأثر كذلك في حرصه على أداء حقوق العباد ، وبُعده عن إلحاق الظلم بهم .

رابعا : نظرته إلى المظالم ؛ فالمسلم يسعى إلى رفع الظلم عن نفسه ، وإلى الانتصار لنفسه من ظالمه بالحق . . ولكنه في الوقت ذاته يعلم أن الجزاء الحقيقي إنما يكون في الآخرة ، وهو الجزاء الأكبر والأهم . . ولذلك فإنه إذا لم يستطع الانتصار لحقه في الدنيا فإنه لا ييأس ولا يحزن ، لأنه يعلم أن حقه لن يضيع ، وأن الظالم آخذ جزاءه لا محالة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا

كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾ [فاطر : ٤٥] .

خامسا : عدم الاستغراق في الشهوات والملهيات ؛ فمن المعلوم أن الإسلام لم يحرم كل الشهوات والملذات ونحوها من متع الدنيا ، بل جعل الأصل في مثل هذه الأمور الإباحة إلا ما دل الدليل الشرعي على تحريمه . . ولكن حديثنا هنا لا يدور حول الحلال والحرام في الشهوات والملهيات والملذات ، بل حديثنا حول الاستغراق في هذه الأمور حتى لو كانت مباحة ، بحيث تصير جزءا أساسيا من هوية الإنسان ؛ فيتعلق قلبه بها تعلقا كبيرا ، وتدور حياته حولها وحول سبل تحقيقها وتحسينها .

من يتأمل في حياة الإنسان في الغرب يجد هذه السمة ظاهرة في هوية عموم الناس هناك . . فالعمل والجد والكسل والحزن والفرح . . كل ذلك يدور في فلك تحقيق أقصى درجات الرفاهية والملذات . . وهذه نتيجة متوقعة في ظل الثقافة الغربية التي تعظم الفرد ، وتضع المحافظة على رفاهيته في سلّم الأولويات ، كما أن الخواء الروحي له دور كبير في تعلق القلب بالملذات والشهوات ، وذلك لما يجده صاحب ذلك القلب من سد فراغ ، أو إبعاد عن الألم الروحي بمعنى أقرب .

ومع عمل الغرب على ابتلاع العالم كله وصبغه بصبغته الفكرية فقد شاعت هذه الحالة في العالم الإسلامي بدرجات متفاوتة ، فصار الانكباب على الشهوات والملذات سمة ظاهرة لدى فئات من المسلمين . . بعضهم لا يبالي بحلال ولا حرام ، وبعضهم يتحرى أن يكون استغراقه في الملذات باقيا في دائرة الحلال .

ولا شك أن الفقه الإسلامي فيه ما يغني من الحلال ، وله القدرة على إيجاد المخارج الشرعية . . ولكن الاقتصار في التعامل مع هذه المسألة على إيجاد المخارج لا يحل أصل الإشكال ؛ لأنه باق في دائرة الاستغراق في الشهوات والانكباب على الدنيا ؛ فهو نوع من الدفاع وردات الفعل أكثر من كونه تأسيسا لهوية المسلم الأصيلة في العصر الحاضر .

إن الإسلام لم يحرم الملذات ، بل دائرة المباحات فيه أوسع من دائرة المحرمات ، ولكن مركزية الآخرة في حياة المسلم تجعل التعامل مع المباحات منضبطا متزنا ، لا إفراط فيه ، ولا تعلق للقلب .

وفضلا عن ذلك فإن الاستغراق في المباحات بحيث تصير جزءا من الهوية له آثار سلبية على المسلم ؛ ومنها : أن هذه الحالة لا تتفق مع الهمة العالية التي ينبغي أن يتحلى المسلم بها . . تلك الهمة التي تسمو به إلى معالي الأمور ، إلى حد أنه يمكن أن يضحي بحياته في سبيل نصرة دينه .

ومنها : أن هذا الاستغراق يكون طريقا إلى الوقوع في المحرمات عند كثير من الناس ، لا سيما مع غياب العلم بالضوابط الشرعية ؛ فالقلب إذا تعلق بعموم المباحات والملذات صعب عليه الامتناع عن جزء منها .

سادسا : عدم التنازل عن المبادئ لأجل المصلحة ؛ فالإسلام لم يأت بمحاربة مصالح العباد ؛ ولكنه قيد تحقيق هذه المصالح بالقيود الشرعية . . ولذلك فإن المسلم في حياته ، وفي اكتسابه رزقه ، وفي تعامله مع الناس . . لا يتنازل عن عقيدته ، ولا مبادئه ، ولا أخلاقه لأجل تحصيل مصلحة مادية أو سياسية .

كثيرا ما نسمع الغرب يرفع شعارات حقوق الإنسان عند التعامل مع الشعوب الأخرى ، ولكن إذا تعلق الأمر بمصلحة تلك الدول ، سواء أكانت اقتصادية أم سياسية ، نرى بوضوح أنهم لا يرون حرجا في الاعتراف بالقتلة والمجرمين وربما احترامهم وتكريمهم . . بل بغض الطرف عما يمارسونه من قتل ، وظلم ، وشتى صور انتهاك "حقوق الإنسان" .

أما الإسلام فإنه ينهى عن مثل هذه الصور من التعامل ، ويجعل العدل هو أساس التعامل مع الناس ؛ فلا يرضى الظلم بحال ، ولا يجعل الغدر أو عدم الإيفاء بالمواثيق من طرق السياسة المقبولة .

ومن شواهد ذلك أيضا : حثُّ الإسلام على العناية بالفئات الضعيفة أو المستضعفة من الناس ، مع أننا إذا عرضنا هذه الحالة على المعايير المادية التي يحتكم إليها الغرب لما كان لها كبير مردود ، ومن ذلك حث الإسلام على نصرة المظلوم ، وتحرير الأسرى ، وبر الوالدين . . وغيرها من الأمور التي يمكن للغرب أن "يضحي" بها في سياق الحفاظ على المصالح الاقتصادية أو السياسية .

هل يتعارض العلم التجريبي مع دين الإسلام؟

نختم المقالات التي تحدثْنا فيها عن الدين الحق والموقف من الأديان الأخرى بسؤال يشكّل سببا أساسيا في ترك الغربيين دينهم إلى مذاهب فكرية جديدة ، كما أنه سؤال يُستحضر الآن في محاولة لمساواة الإسلام بغيره من هذه الناحية . . فهذا السؤال يشكل -إذن- حلقة وصل بين حديثنا عن الدين الحق وموقفه من الأديان الأخرى ، وبين الحديث عن موقف الدين الحق من المذاهب الفكرية المعاصرة التي تخالف الإسلام .

إن هذا السؤال مهم ، وقد شكل عاملا مركزيا لتشويش الصورة لدى كثير من المسلمين ؛ وذلك لأنهم لما رأوا أن الغرب لم يتقدم علميا حتى انسلخ من دينه ، ظنوا أن المسلمين لن يقوموا من رقدتهم الحالية إلا بالانسلاخ من الدين كذلك .

وهذه النظرة فيها إشكالات كثيرة ، يمكن بيانها من خلال أمور :

الأمر الأول : أن هذه النظرة قائمة على التسوية بين الإسلام -وهو الدين الحق الذي لم تنله يد التحريف البشرية- وبين غيره من الأديان المحرفة والأفكار البشرية ؛ فالإسلام مصدره إلهي . . والله تعالى يتصف بالعلم الكامل ، والحكمة البالغة ، ثم إن الإسلام لم

تتعرض نصوصه للتحريف ، فلذلك لا يمكن أن يوجد فيه ما يعارض الواقع أو الحقائق العلمية .

أما الأفكار البشرية ، أو الأديان التي تعرضت للتحريف ، فإنها تكون عرضة لذلك التعارض ، لأن الإنسان لا يمكن أن يتصف بالعلم الكامل أبدا .

الأمر الثاني : لما كان الغرب في العصور السابقة يتـــــــــــدين بدين النصرانية ، الذي طالته تحريفات كثيرة على مر العصور ، فإنهم لم يستطيعوا التوفيق بين هذا الدين وبين العلم التجريبي ؛ فبعد ظهور النهضة العلمية في الغرب لم يستطع الغربيون أن يجمعوا بين حالتهم الدينية وبين نتائج التقدم في العلم التجريبي ، ولذلك فقد حصل صراع حاد وطويل بين الكنسية والعلماء التجريبيين ، إلى أن اختار الغرب نبذ دينهم ، والتمسك بالعلم التجريبي .

ولكن هذه الحال ليست موجودة في دين الإسلام . . لا نظريا ، ولا واقعا .

أما من حيث الجانب النظري فإن دين الإسلام أمر بالتفكر والتأمل في المخلوقات طلبا للهدى ؛ وبذلك فقد فتح الباب واسعا أمام أصحاب العقول الذين يريدون التعمق في معرفة تفاصيل المخلوقات . . ونجد في القرآن آيات كثيرة تحث على التأمل في

السماوات والأرض والغيوم والجبال والأشجار والحيوانات والنجوم والشمس والقمر وغيرها .

وهذا التأمل وإن كان المقصود منه الوصول إلى معان إيمانية إلا أن هذا يتضمن الوقوف على أسرار الخلق وعجائبه ؛ فإذا أحب الإنسان أن يتعمق في ذلك لأسباب أخرى فلا مانع من ذلك ؛ فالإسلام فيه قاعدة عظيمة ، وهي أن الأصل في الأشياء الإباحة ، فما دامت هذه الأمور لا تتضمن مخالفات للإسلام فإن الإسلام لا يحرمها . . فكيف إذا كانت سببا للقوة والتقدم الذي نستعين به على إقامة الدين ونشره .

وأما واقعيا فإن الإسلام لم يقف عبر تاريخه موقفا محادا للعلم كما فعلت الكنيسة ، بل شهدت عصور الإسلام تقدما علميا كبيرا ؛ ففي الوقت الذي كان الأوروبيون يغرقون فيه في الجهل والظلامية ، كان المسلمون قد قطعوا أشواطا كبيرة في العلوم التجريبية ، ولو كان الإسلام كالكنيسة في هذا الباب لما شهدت بلاد المسلمين ذلك التقدم العلمي ، مع محافظتها وتمسكها بدينها .

ولكن بعض العلمانيين العرب يحاولون أن يلقوا أسباب الفشل الذي ألحقوه بالأمة على الإسلام ؛ فبعدما دمروا الأمة الإسلامية سياسيا واقتصاديا وعلميا وعقليا وأخلاقيا ، صاروا إذا سمعوا من يتكلم في الدين يقولون : الناس وصلوا إلى القمر وأنت تتحدث في

الدين . . هذه الكلمة تمثل وتلخص ذلك القياس الباطل الذي تقدم رده . . الإسلام لا يمنعك من الصعود إلى القمر . . يمكنك ذلك وأنت مسلم ، يمكنك ذلك وأنت تصلي وتغتسل من الجنابة وتحافظ على عرضك . . لا تعارض بين الأمرين .

والواقع يشهد أن كثيرا من الأذكياء والبارزين في كثير من العلوم هم مسلمون ، ملتزمون بدينهم ، ولم يمنعهم إسلامهم من ذلك حديثا كما أنه لم يمنعهم قديما .

الأمر الثالث : من المهم هنا فهم أن التعارض المراد هنا هو ما قد يسمى بالتناقض ، بحيث يوجد تعارض بين أمرين من كل وجه ، بحيث لا يمكن الجمع بينهما بأي وجه من الوجوه ، وهذا يكون فقط عند تعارض أمرين قطعيين ، وما سوى ذلك فهو تعارض متوهم لا وجود له إلا في ذهن صاحبه .

وبيان ذلك أن النصوص الدينية الإسلامية الثابتة إما أن تكون قَطْعِية (لا تحتمل إلا فهما واحدا) ، أو غير قطعية (تحتمل أكثر من فهم) ، والأمور العلمية إما أن تكون حقائق علمية قطعية ، أو نظريات ظنية .

أما معرفة القطعي من غيره من النصوص فمرده إلى اللغة العربية وأصول الفقه ، وأما الأمور العلمية فمرد التمييز بين الحقائق

والنظريات فيها هو العلم التجريبي ؛ ويمكن للشخص فهم هذا الأمر من خلال قراءة ما يُكتب في هذا الباب من الكتابات .

إن عدم التفريق بين الحقيقة العلمية وبين النظريات قد فتح باب خطأ كبير على كثير من الناس ، الذين ظنوا أن بعض النظريات أو حتى الدراسات تتعارض مع النصوص القطعية . . وهذا ناشئ عن عدم فهم طبيعة النظرية العلمية ؛ فالنظرية العلمية وإن كانت ناشئة عن مجموعة كبيرة من الملاحظات والدراسات إلا أنها تبقى معرضة للنقض في أي وقت .

إذا علمنا هذا فإن احتمالات التعارض المتوهم بين العلم التجريبي وبين الدين أربعة :

أ- أن يتعارض نص ديني قطعي مع العلم الظني ، فيقدم النص القطعي .

ب- أن يتعارض نص ديني ظني مع العلم القطعي ، فيقدم العلم القطعي .

ج- أن يتعارض نص ديني قطعي مع العلم القطعي ، وهذا لا وجود له مطلقا في الإسلام .

د- أن يتعارض نص دينيي ظني مع العلم الظني ، فعندها يطلب الترجيح من دليل آخر .

ويلخص ما سبق أن الذي يقدم هو القطعي مطلقا ، سواء كان من النصوص أو العلم التجريبي .

ويمكن أن نمثل للأمر الأول بمثال معاصر : وهو توهم التعارض بين النصوص الشرعية القطعية التي أخبرتنا بأن الله تعالى خلق آدم خلقا مباشرا ، وبين نظرية داروين التي تفترض أن الإنسان تطور من مخلوقات سابقة . . ففرض التعارض هنا خطأ أصلا ، لأن نظرية داروين ظنية ، ونصوص خلق آدم قطعية ؛ والظني لا يقوى على معارضة القطعي مطلقا .

فلا تعارض أصلا لنحاول الجمع بين الأمرين . . طبعا هذا على التسليم بموضوعية النظرية ، فكيف إذا علمنا أن هذه النظرية عليها كثير من الاعتراضات العلمية التي تهز أصلها .

مثال آخر يتعلق بالحال الثانية ، وهي مسألة كروية الأرض ؛ حيث يظن بعض الناس أن هناك تعارضا بين حقيقة أن الأرض كروية وبين النصوص الشرعية .

والحق أنه لا تعارض ، فلا يوجد نص قطعي يخبرنا بأن الأرض مسطحة ، وكل ما يوجد هو اجتهادات خاصة ببعض العلماء ، فهموها من بعض النصوص ، وهذه الاجتهادات تنسب إليهم لا إلى الشريعة ؛ فلا يقال : القرآن يتعارض مع كروية الأرض ، بسبب وجود بعض الاجتهادات .

فكيف إذا علمنا أن هناك نصوصا تشير إلى كروية الأرض ؛ وقد فهم ذلك عدد من العلماء قديما وبينوه كما فعل ابن تيمية وغيره .

الأمر الرابع : عدم مراعاة ما تقدم أدى إلى تساهل كثير من الباحثين في باب الإعجاز العلمي الموجود في القرآن ، فنحن لا ننكر وجود الإعجاز العلمي في القرآن ، ولكن يجب هنا أن نلاحظ أن كلامنا في هذا الأمر يجب أن يكون محكوما بالقواعد السابقة ؛ فالأصل أن الإنسان إذا أراد أن يتكلم في هذا الباب أن يكون غالب كلامه في مجال الحقائق العلمية القطعية ، مع الحرص على مراعاة النص القرآن وعدم تحميله ما لا يحتمل .

وأما ما يتعلق بالنظريات العلمية ، فإذا وقف الباحث على نظرية علمية قوية ورأى أن هناك آية تتحدث عن الموضوع ذاته ، فالواجب عليه أولا أن يبين أن هذه النظرية يمكن أن تنقض في أي يوم من الأيام ، وأن يبين أن دلالة النص القرآني عليها ظنية لا قطعية . . والأولى اجتناب هذا ابتداء ، -إذا تعلق الأمر بنظرية لا حقيقة- .

وأما ما يفعله بعض الناس ، وهو أن يطالع بحثا أو دراسة في مجلة علمية ، ثم يأتي إلى آية لا علاقة لها بالموضوع أو لها علاقة ، ثم يقول : ثبت علميا كذا وكذا والقرآن ذكر هذا! فهذا الفعل جناية على الإسلام . . قد شكك كثيرا من الناس في دينهم .

إذا كان صاحب الدراسة نفسه قد يتراجع عنها في اليوم التالي ، فكيف تنسب هذا إلى القرآن ، وهو لم ينص عليه أصلا!

وكم من النظريات العلمية كانت معتمدة لعقود طويلة ، وبات كثير من العلماء على قناعة تامة بها ، ثم أظهرت التجارب خطأها . . هذه هي طبيعة النظريات العلمية .

والإشكال هنا يدخل على كثير من الناس بسبب وجود ظن خاطئ عندهم ؛ وهو أن القرآن يجب أن يتحدث عن كل الأمور العلمية . . وهذا فهم خاطئ ، فالقرآن ليس كتاب كيمياء ولا فلك ولا فيزياء ، بل هو كتاب هداية . . قد يتضمن إشارات علمية ليؤكد بها موضوع الهداية ؛ وعليه فلا يشترط أن كل حقيقة علمية أو كل نظرية علمية أو دراسة ، لا يشترط أن يكون لها ذكر أو إشارة في القرآن الكريم .

الفكر المعاصر

موقف المسلم من المنظومات الفكرية الأخرى

الغرب والتدين!

ارتباط صلاح النظام الأخلاقي بالإيمان بالله تعالى . .عجز البشر

لماذا يتحلى الغربيون بالأخلاق الحسنة؟

عداء أم وئام؟!

العداء التاريخي

الانبهار بحضارة الغرب

نظرة على التأثر الإسلامي بالفكر الغربي

تأثير النشاط التغريبي على بلاد المسلمين

موقف المسلم من المنظومات الفكرية الأخرى

موقف المسلم من حضارة الغرب من أكثر المواضيع ذات الأهمية والتأثير في المجتمعات المسلمة وحكوماتها . . وكثير من الظواهر المركزية في البعد عن الدين حاليا ناتجة عن تأثر كثير من المسلمين بالغرب ؛ فتغييب الشريعة الإسلامية عن الحكم ، ومهاجمة ثوابت الإسلام ، والدعوة إلى "تجديده" ، وموجة الإلحاد ، وانحلال المرأة ، وتغيير المناهج ، وتغيير الموقف من الأعداء ، وانتشار المبادئ المالية الظالمة ، وكثير غير ذلك من أهم ما ولده : الغزو الثقافي الغربي على بلاد المسلمين .

ولا شك أن من أهم عوامل هذا التأثر الكبير :

أولا : غلبة الغرب علينا من ناحية القوة ، فالأمم المهزومة ينشأ فيها حب التشبه بالأمم الغالبة . . ولثقافة الأمم الغالبة سلطان كبير على النفوس والشعوب ، قد يفوق تأثير القوة المادية .

ثانيا : وجود حالة كبيرة من الجهل بين المسلمين ، تمتد لتصل إلى الجهل بالأمور الأساسية في الإسلام .

ثالثا : وجود نشاط غربي كبير للتأثير على المسلمين ثقافيا ، وهذا واضح قديما وحديثا ، من خلال صناعة شخصيات علمية ، وتيارات

فكرية ، ومؤسسات إعلامية ، وجمعيات تغريبية ، تبث ثقافة الغرب بين المسلمين ، بتسهيل ودعم من بعض الحكومات .

وهذه العوامل المجتمعة عوامل خطيرة شديدة التأثير والفعالية ، وهي كفيلة بتغيير أي مجتمع إذا لم تلق حركة ثقافية قوية تصد عدوانها .

ومن أبرز ظواهر هذه الحالة : ادعاء بعض المسلمين المتأثرين بالفكر الغربي أن أفكارهم تتوافق مع الإسلام ، محاولين استغلال الخلاف التراثي بين المسلمين حول قضايا أساسية أو فرعية . . والواقع أن الخلط بين هذين النوعين من الخلاف ، أعني الخلاف التراثي وبين الفكر الغربي من أهم موارد الإشكالات ؛ ولذلك فإننا هنا سنذكر أهم المعالم التي تميز الخلاف التراثي -سواء أكان مقبولا أم لا- وبين الفكر الغربي . . ولذلك فالمقصود هنا بالمنظومات الفكرية الأخرى : الأفكار غير الدينية الخارجة عن دين الإسلام ، والتي لا تقر بالإسلام منهجا للحياة والحكم ، وإن كانت قد تقبل به كشعائر للعبادة .

وهي تيارات واتجاهات كثيرة ؛ وليس المراد هنا ذكرها تفصيلا ونقد ما فيها ، بل المراد أن يقف القارئ على المعيار الذي يجعل فكريا معينا فكرا خارجا عن الإسلام .

وننبه إلى أن الكلام هنا عن الأفكار لا عن عين من قد يتبناها من المنتسبين إلى الإسلام ، فبعض هذه الأفكار -لا كلها- قد يعذر الشخص المعين المسلم إذا تبناها جهلا أو تأويلا ، وللتفصيل في هذا مقام آخر .

إذا علمنا هذا فإن من أهم الأمور التي تجعل الفكر فكرا خارجا عن الإسلام :

أولا : إنكار وجود الخالق سبحانه ، أو عدم الجزم بوجوده ، أو اعتقاد أن هذه المسألة هامشية ، أو أنها داخلة في الحرية الشخصية الصحيحة .

ومن ذلك : إقرار الملاحدة على كفرهم ، والقول بأن لهم الحق في الدعوة إلى إلحادهم .

ثانيا : الإقرار بوجود الله تعالى ، مع إنكار الأديان عموما أو دين الإسلام خصوصا .

ثالثا : عدم التصديق بنبوة محمد ﷺ وعدم متابعته ، أو تصديقه مع عدم متابعته ، أو اعتباره مجرد مصلح أو قائد ذكي .

ومن ذلك القول بأن من آمن بالله ولم يتابع محمدا ﷺ فإنه قد ينجو في الآخرة .

رابعا : اعتقاد أن دين الإسلام كغيره من الأديان أو الأفكار ؛ فلا حق ولا باطل ، بل كل الأديان والأفكار سواء .

ومما ينبني على هذا الأصل الباطل : عدم تكفير أتباع الديانات الأخرى .

ويدل على ما سبق قوله تعالى : ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾[البقرة : ١٣٧] ، وقال : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ﴾[آل عمران : ١٩] ، وقال : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران : ٨٥] .

خامسا : اعتقاد أن دين الإسلام أفكارا متخلفة ، أو أنه لا يصلح لهذا الزمان .

سادسا : إبعاد الإسلام عن التدخل في شتى مناحي الحياة ؛ فالإسلام عندهم مجرد علاقة بين الإنسان وربه ، ولا أثر له في الواقع ؛ فلا أثر له في أخلاق الإنسان ولا تصرفاته ؛ ومن هذا اعتقاد أن اللباس مسألة شخصية لا دخل للدين فيها ، فللمرأة -مثلا- أن تلبس ما شاءت ، ولا تلتزم باللباس الشرعي .

ومن ذلك : اعتقاد أن الاقتصاد لا علاقة له بأحكام الشريعة الإسلامية .

سابعا : إبعاد الإسلام عن الحكم ، مع اعتقاد أنه لا يصلح للحكم ، أو أنه هو الأفضل ولكن يجوز الحكم بغيره .

ومن ذلك : اعتقاد أن ميراث المرأة يجب أن يكون كميراث الرجل ، وتشريع زواج الشواذ ، وإيقاف الحدود الشرعية .

ويدل على ما سبق قوله تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء : ٦٥] ، وقال : ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [النور : ٤٧] .

ثامنا : القول بأن التراث الإسلامي عموما يجب أن تعاد صياغة مسلّماته بما يوافق العصر ، ولو أدى ذلك إلى تجاوز النصوص الصريحة .

قال تعالى : ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[آل عمران : ١٠٣] ، وقال : ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود : ١١٢] .

وليس المراد هنا حصر هذه الأمور ، بل المراد التنبيه على بعضها ليتشكل عند المسلم تصور أساسي حول الموضوع .

هذا ، وإن ادعى صاحب الفكر الذي توفرت فيه هذه الأمور أو بعضها أو غيرها مما لم يذكر ، وكانت صالحة لذلك ، لو ادعى صاحبها أن فكره يتوافق مع الإسلام أو أنه لا يخالفه ، فلا عبرة بدعواه ، ولا يقبل كلامه ؛ لأن العبرة بحقيقة القول لا بدعوى صاحبه .

الغرب والتدين!

من أهم ما يميز الحضارة الغربية في هذا الزمان : البعد عن الأديان عموما ، والغالب على هذه الحضارة عدم التدين بأي دين ، مع وجود مذاهب في حالة عدم التدين هذه .

والمراد هنا فقط بيان بعض أسباب عزوف الغرب عن الدين . . والهدف من ذكر هذه الأسباب : بيان الفرق بين الحالة الدينية للغرب قديما ، وبين الإسلام ، وذلك لإزالة الغشاوة عمن يظن أن سبيل نهضة المسلمين هو أن يتركوا الدين كما فعل الغرب . . فذِكر هذه الأسباب يوقف النبيه على أن ذلك القياس قياس غير صحيح .

فمن هذه الأسباب :

أولا : الظلم الذي تعرض له الناس بسبب الكنيسة قديما ؛ حيث كانت تأكل أموال الناس بالباطل . . وهي ظاهرة معروفة تاريخيا ، وقد أخبرنا الله تعالى عنها بقوله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٣٤] .

ومن هذا الظلم كذلك ما كان يمارسه رجال الدين عندهم من إضفاء الصبغة الدينية الإلهية على كل ما يمارسه ملوكهم من الظلم .

أما الإسلام فليس فيه هذا كله ، فالإسلام حرم أكل أموال الناس بالباطل ، وشرع من التشريعات والعقوبات ما يحارب به هذا .

وأما تشريع ظلم الحاكم فقد حاربه الإسلام كذلك وحرمه ، من خلال تقييد طاعة الحاكم ، فلا يطاع إذا أمر بمعصية ، كما حاربه كذلك من خلال تشريع النصيحة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ثانيا : التقدم في العلوم التجريبية ، والذي فتح عيون الغرب على وجود تناقضات بين دينهم المحرف وبين العلم التجريبي ، فدخلوا في حالة صراع طويلة إلى أن استقر أمرهم على نبذ الأديان عموما .

وأما دين الإسلام فليس فيه ما يعارض العلم ، لا من الناحية النظرية ولا الواقعية . . كما تقدم في مقال : (هل يتعارض العلم التجريبي مع دين الإسلام؟)

فإذا استحضر الإنسان هذه الفروق الجوهرية وغيرها من الفروق الهامة التي لم تـــــــــــذكر ، علم أن مقارنة حالنا مع حال الغرب في العصور الوسطى مقارنة ظالمة ، وأن مقارنة دين الإسلام النقي الخالي من التحريف مع الأديان المحرفة أو المذاهب الفلسفية البشرية هي مقارنة ظالمة كذلك .

والمسلمون كانوا أمة قوية يوم كانوا متمسكين بدينهم آخذين بأسباب النصر ، وما كانت العلمانية فيهم إلا سببا للتخلف والضعف على كل المستويات .

ولذلك فسبيل عزة أمتنا وقوتها لا يكون بالبعد عن الدين أكثر ، بل بالعودة إليه والتمسك به ، كما قال تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور : ٥٥] ، وقال : ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات : ١٧١-١٧٣] ، وقال : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج : ٤٠] .

ارتباط صلاح النظام الأخلاقي بالإيمان بالله تعالى.. عجز البشر

من أهم معالم الفكر الغربي المعاصر محاولته الاستغناء عن الأديان في الحياة عموما ، وبخاصة فيما يتعلق بالأنظمة والقوانين ، وبما ترتبط به من جانب فكري أخلاقي .

ولذلك فإن المراد هنا التأكيد على عبثية الحالة الغربية في هذا الباب ، من خلال بيان معلم أساس من معالم هوية المجتمع المسلم ، وهي ارتباط نظامه الأخلاقي بالإيمان بالله تعالى .

إن البشر لا يمكنهم أن يقيموا لأنفسهم نظامًا أخلاقيًا كاملا بدون الإيمان بوجود الله والخضوع له ؛ والمراد بهذا النظام الأخلاقي الكامل أنه لا بد أن يشتمل على جانبين :

الجانب الأول : الوصول إلى جميع القيم الأخلاقية المطلقة التي تكفل السعادة للبشرية . . والمراد بالقيم الأخلاقية المطلقة : القيم الأخلاقية التي لا تخضع لآراء الناس ، ولا تخضع لزمان ، أو مكان ، فهي قيم أخلاقية صحيحة في ذاتها ، متعالية عن آراء البشر ووجهات نظرهم النسبية ، ومن هذه الأخلاق : العدل والصدق والأمانة ، ونحو ذلك من المفاهيم والقيم الأخلاقية .

الجانب الثاني : العلم بالتفاصيل التي تكفل تطبيق هذه القيم الأخلاقية المطلقة في حياتنا الواقعية ، وصياغتها على شكل تشريعات تكفل للبشرية السعادة والاستقرار .

إن هذا النظام الأخلاقي لا يمكن الوصول إليه إلا بتحصيل أمرين :

الأمر الأول : العلم التام ؛ والمراد به العلم بتفاصيل ما يصلح الناس ، والعلم بما يصلحهم في حاضرهم ، ومستقبلهم .

والأمر الثاني : التجرد التام عن الهوى ؛ بحيث لا يتدخل الهوى بوضع تشريع أو إلغاء آخر استجابةً لشهوة ، أو جاه ، أو محافظة على أتباع .

وهذان الأمران : العلم التام ، والتجرد التام عن الهوى= لا يمكن لبشر أن يتصف بهما ، بل لا بد أن يدخل عليه النقص فيهما معا ، أو في أحدهما ؛ فإن البشر وإن استطاعوا الوصول إلى إدراك ضرورة بعض القيم الأخلاقية المطلقة -كالعدل والرحمة- ، فإنهم لا يستطيعون إدراكها بالتفصيل ، بحيث يصلون إلى تحقيقها بشكل كامل في حياتهم .

وعلى سبيل المثال : فالبشر منذ القدم أدركوا قيمة العدل ، إلا أن طرائقهم اختلفت اختلافا شديدا في تحصيله ، حتى وقعوا في صور من الظلم باسم العدل ، كما فعل الغرب لما جعل العدل مساواة

مطلقة في كل شيء ، فسوى -مثلا- بين الرجل والمرأة مطلقا ، فظلم الرجل والمرأة ، ولم يستطع تطبيق هذا عمليا لأنه مخالف للفطرة البشرية .

وعليه فلا يمكن للبشر الوصول إلى هذا النظام الأخلاقي ، وإذا كان البشر لا يمكنهم ذلك تعين أن يكون المصدر خارجا عنهم ، متعاليا عن الصفات البشرية ، كامل الصفات . . وهو الله ﷻ .

لماذا يتحلى الغربيون بالأخلاق الحسنة؟

هذا السؤال مرتبط بالمقال السابق ؛ فعند الحديث عن عجز البشر عن الوصول إلى نظام أخلاقي كامل فقد يتبادر سؤال إلى أذهان بعض الناس ، فيقولون : ولكننا نرى أن الغرب يتحلون بالأخلاق الحسنة؟

والجواب : أننا لا ننكر وجود جانب من الأخلاق الحسنة عند الغربيين ، ولكن نريد أن نبين هنا أمرين :

أولا : إزالة التصور المبالغ فيه عن أخلاق الغربيين ، فالمقدمة التي قام عليها السؤال غير مسلّمة أصلا .

ثانيا : بيان عدم وجود مستند فلسفي / نظري للأخلاق في الثقافة الغربية .

وحتى نتيقن أن الغرب لم يصل إلى تلك الصورة الأخلاقية الكاملة ، فلنقف على بعض الملاحظات التي تبين لنا ذلك ، وتبين لنا مدى الإشكالات الفلسفية والواقعية التي يعيشها الغرب في الجانب الأخلاقي :

الملاحظة الأولى : إدراك الغربيين لبعض هذه القيم الأخلاقية -هو كإدراك غيرهم من البشر- لا يعني إدراكهم لباقيها ، ولا يعني إحاطتهم بالقيم الأخلاقية المطلوبة لإصلاح المجتمع . . ثم إن

إدراكهم لما أدركوه منها هو على سبيل العموم لا التفصيل ، فهم يدركون أهمية العدل مثلا ، ولكنهم لا يستطيعون الوصول إلى تشريعات من شأنها أن تحقق العدل بشكل كامل .

الملاحظة الثانية : يعاني الغرب من خلل **مفاهيمي ومعياري** في المنظومة الأخلاقية .

أما على المستوى المفاهيمي فإن الغرب ليس عنده حد معين لمفهوم كثير من الأخلاق ، بل كثيرا ما يتغير مفهوم الأخلاق عندهم بحسب الزمان أو المكان أو المصلحة السياسية أو الاقتصادية ، فمفهوم الحرية –مثلا– لم يشمل الشذوذ الجنسي قديما ، والآن صار داخلا في مفهوم الحرية ، وصاروا يدافعون عنه كحق من "حقوق الإنسان" .

ومن ذلك أن الغرب لم يجد غضاضة في تمرير التشريعات الرأسمالية التي خلقت طبقة عريضة من الفقراء والمشردين . . لم يجد الغرب غضاضة في تمرير هذه التشريعات من تحت عباءة "الحرية" الواسعة .

بل لم تجد بعض دوله إشكالا في قتل الشعوب وتجويعها وتشريدها لأجل "المحافظة على مصالح" هذه الشعوب ، أو لأجل "الدفاع عن حريتها" .

وأما على المستوى المعياري فإن الفكر الغربي عموما ، والإلحاد خصوما ، ليس عنده معيار لتمييز الأخلاق السيئة من الأخلاق الحسنة ؛ وذلك نتيجة لعدم اعتمادهم على الدين في تحديد هذا الأمر ، لذلك فإنك تجدهم يختلفون في هذا المعيار ؛ فقد يرجعون الأمر إلى اختلاف الزمان ، أو المكان ، أو الظروف الاجتماعية ، أو "التطور الداروينى" ، ويمكن أن يمثل لذلك بالشذوذ الجنسي كذلك ، الذي كان عندهم مرضا نفسيا مذموما ، ثم صار غير مذموم ، وأيدوا ذلك بـ"أبحاث علمية" غير نزيهة .

وكثيرا ما يكون المعيار راجعا إلى الهوى والتشهي ، أو إلى مصلحة أصحاب رؤوس الأموال ، أو الساسة ، ولنا أن نمثل لذلك بموقفهم من (العفاف) -مثلا- ، فإن الغرب عموما لا يرى أي وزن لهذه القيمة الأخلاقية ، بل قد يعدونها من العقد النفسية التي يجب التخلص منها . . وللناظر أن يتأمل في هذا السياق موقفهم من الحجاب ، ومنع بعض دولهم للنقاب ، مع تشجيعهم على العري ، ودفاعهم الشديد عن الشذوذ الجنسي .

ومن ذلك موقفهم من بر الوالدين ، فالذي يرى تشريعاتهم وقيمهم في ذلك لا يرى أن لبر الوالدين أي وزن كذلك ، بل يرى انتقاصا لهذا المفهوم عن طريق إعطاء المراهق حقا في سجن والديه إذا حاولا منعه من بعض ما يدخل في مفهوم الحرية عندهم .

ويُمثّل -كذلك- لدخول الهوى في تشريع بعض القوانين في الغرب : محاولة أمريكا منع شرب الخمر في أول القرن الماضي ؛ وذلك أن المشرعين هناك كانوا على علم بالمفاسد النفسية والصحية والاجتماعية التي يسببها الخمر ، لكنهم لم يلبثوا أن ألغوا ذلك القانون الذي يحظر شرب الخمر ، رضوخا لرغبة الناس .

ثم امتد الأمر إلى المخدرات ، فبعد أن كان تعاطي المخدرات بأنواعها جريمة ، اتجهت كثير من الدول الغربية إلى السماح بأنواع "خفيفة" من المخدرات ، وصار بيعها وتعاطيها مشرعا بشكل رسمي .

ومما لا شك فيه أن عدم انضباط هذين الأمرين (العامل المفاهيمي والمعياري) يفتح باب شر عظيم ؛ فلو فرضنا أن المجتمع لم يعد يرى التحرش بالأطفال -مثلا- خلقا سيئا ، أو أن البرلمانات أقرت قانونا يسمح بذلك فإنه يلزمهم أن يكون التحرش بالأطفال غير داخل في الأخلاق السيئة ، ومثل هذا يقال في الاغتصاب ، وزنا المحارم ، والقتل ، ونحو ذلك من المسائل .

الملاحظة الثالثة : هناك إشكال كبير عند الغرب فيما يتعلق بالدافع الذي يدفعهم للالتزام بالأخلاق الفاضلة ، فإذا كان المؤمن يطلب الأجر والثواب من الله ﷻ عند التزامه بالأخلاق ، ويخاف عقابه إن فرّط ، فإن الغربي لا يجد في منظومته الثقافية المادية ما

يدعوه إلى الالتزام بالأخلاق إلا إذا عادت عليه بفائدة مادية أو نفسية ، وعليه فالالتزام الدقيق بالمواعيد هو سبيل للنجاح في العمل والعلاقات مع الآخرين ، والتبرع والعمل الخيري سبيل لتحصيل الراحة النفسية والخروج من حالة الاضطراب النفسي مثلا .

ثم لنا أن نسأل سؤالا : من أين استقى الغرب جملة عريضة من تلك الأخلاق التي يدعو إليها؟ أليس مصدرها دينيا أساسا؟ أليس كثير منها راجعا إلى الفطرة؟

إن الفكر الغربي استقى ما عنده من أخلاق من الدين الذي تركه ، أو من الفطرة التي نالها تحريفه ، إذ ليس في المنظومة الفكرية الغربية ما يساعد على الوصول إلى هذه المفاهيم ، لأنه لا أساس لها عندهم ، ولا مفهوم ولا معيار ، بل لا حاجة لها كما تقدم .

عداء أم وئام؟!

من الأمور المهمة التي ينبغي أن يدركها المسلم عند الحديث عن الموقف من الحضارة الغربية أن هناك عداء تاريخيا بين المسلمين وبين الغرب . . هذا العداء الذي استمر منذ بعثة النبي ﷺ إلى الآن ، لم يتغير عبر العصور ، ولم يتأثر بمختلف العوامل ، إلا أنه يكون تارة ظاهرا ، وتارة خفيا .

إن عدم إدراك هذه المسألة قد ساق كثيرا من المسلمين إلى إحسان الظن بالغرب ، أو التسويق لثقافتهم ومعتقداتهم ، لا سيما مع ما يرونه من ظلم وقتل واضطهاد واقع في بعض بلاد المسلمين .

تظهر هذه النزعة عند بعض المواقف التي توصف بـ"الإنسانية" التي يبديها بعض الغربيين تجاه بعض قضايا المسلمين ، كاستقبالهم لبعض اللاجئيين مثلا . . نعم قد يتعاطف بعض الغربيين مع قضايا المسلمين أحيانا . . وليس المراد إنكار هذا ، ولكن المراد هنا التنبيه على أمور حتى يرى المسلم الصورة بشكل كامل :

الأمر الأول : من المهم هنا أن نفرق بين الأصل وبين الحالات الاستثنائية القليلة ؛ فالأصل أن العلاقة بيننا وبين الغرب علاقة براءة دينية ، وكذلك عداوة سياسية تاريخية .

ولا بد للمسلم هنا أن يستحضر الأصل ؛ فمن غير المعقول أن يرق لبعض المواقف الأوروبية تجاه القضية الفلسطينية -مثلا- مع أن بريطانيا هي التي مكنت اليهود في فلسطين ، وفرنسا هي التي ساعدتهم في بناء المفاعل النووي ، ولا يخفى الدعم الأوروبي الكامل لليهود ماليا وعسكريا .

وعليه فمن المهم وضع مثل تلك المواقف في حجمها الطبيعي ، بلا مبالغة ، فالواقع أن هذه الحالات من التعاطف الذي لا يبدوا من ورائه مصلحة ظاهرة هي حالات قليلة جدا ، بل نادرة .

الأمر الثاني : الغرب غارق في الثقافة المادية ، ونادرا ما يبادرون بالإحسان إلى الناس إلا إذا جر لهم ذلك مصلحة مادية أو نفسية . . وقد تقدم بيان شيء من الحالة الأخلاقية للغرب في مقال : لماذا يتحلى الغربيون بالأخلاق الحسنة؟ .

فإذا مَحّص الإنسان نظره في هذه المواقف وغيرها -كالمساعدات التي يقدمونها لبعض الدول- فإنه سيجد من وراء ذلك مصلحة ظاهرة لهم ؛ كاستقطاب الكفاءات ، أو تغيير ثقافة الشعوب ، وكسب ولائها .

الأمر الثالث : ليس مجرد وجود مثل هذه المواقف دليلا على صحة الطريقة أو المعتقد ، فالأخلاق الحسنة قد يتصف بها الكافر ؛ وقد كان كفار قريش والعرب عموما من أكثر الناس اتّصافا بهذه

الأخلاق . . وقصص حماية بعض الكفار للمسلمين في العهد المكي معلومة مشهورة .

والموقف الصحيح المتوازن من هذه الأمور يؤخذ من تعامل النبي ﷺ مع هذا الأمر ؛ فالنبي ﷺ لم يصحح معقد أبي طالب ولا ابن الدغنة ولا المطعم بن عدي ، ولكنه في الوقت ذاته حفظ لهم تلك المواقف ، وهو ما يظهره قوله ﷺ عن أسرى بدر : «لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني (طلب الشفاعة) في هؤلاء النَّتْنى لتركتهم له» [أخرجه البخاري] . فالنبي ﷺ كان وفيا ، يقابل المعروف بمثله ، ولكنه لم يقر الكفار على دينهم ، ولا جعل ذلك سببا لنجاتهم في الآخرة .

العداء التاريخي

التاريخ من أكثر الأمور التي تعين الإنسان على تبصّر الواقع وفهمه ، وتحميه من الوقوع في الوهم والخديعة .

وأمام ما نراه من انبهار كثير من المسلمين بحضارة الغرب ، وبعد أن كشفنا طرفا من ذلك في المقال السابق ، وبعد أن بيّنّا قبل ذلك أيضا الموقف الديني من الغرب ؛ فلا بد لنا هنا من إدراك حقيقة كبرى أخرى ؛ وهي أن العداء بيننا وبين بعض أهل الكتاب هو عداء تاريخي مستحكم ، وأن الغربيين وإن نسوا دينهم كله فلا ينسون هذا العداء . . يخطئ خطأ كبيرا جدا من يحاول تجاهل هذا الأمر عند بناء تصوره أو علاقته مع الغرب .

ويمكن بيان هذه الحقيقة من خلال من الإخبار عنها في النصوص الشرعية ، ومن خلال الواقع .

أما ما جاء في النصوص الشرعية فمن ذلك أن الله تعالى أخبرنا في كتابه عن هذه العداوة ، وأخبر أن سببها الأول هو أننا مسلمون . . لأننا اهتدينا إلى دين الإسلام ، وإلى دين التوحيد ، وهم ضلوا عنه ، وهذا الأمر ذكره الله تعالى في كتابه ، فقال : ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [آل عمران : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿وَدُّواْ لَوْ

تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾ [النساء : ٨٩] ، وقال تعالى : ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة : ١٢٠] ، وقال تعالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة : ١٠٩] أي : لأنهم يحسدوننا على هذا الدين العظيم الذي نحن متمسكون به ، وقال تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

وأما الواقع والتاريخ فكثير جدا ، وهو يفيدنا سببا آخر لحقدهم علينا ، وهو أن المسلمين قاتلوهم لأجل إعلاء كلمة الله ، لا لطمع في الدنيا . . ونصَر الله تعالى المسلمين عليهم ومكنهم منهم أيما تمكين .

فالنبي ﷺ قاتل النصارى في معركة مؤتة (٨ هـ) ، وذهب ليقاتلهم في تبوك (٩ هـ) ففروا رعبا من النبي ﷺ .

ثم بعد وفاته استمر الخلفاء الراشدون بقتال النصارى ، فوقعت معارك بعد النبي ﷺ كمعركة أجنادين ، ومعركة بيسان ، ثم فتحت دمشق ، ثم حمص وحماة ، ثم فتحت القدس ، ثم سائر فلسطين وسوريا ، ولبنان ، وكل هذا في غضون سبع سنوات فقط ،

وكذلك فتحوا مصر (٢٢هـ) ، وتونس (٤٣هـ) ، والأندلس (٩٢هـ) . . والتاريخ مليء بشواهد هذا العداء .

وقد استمرت الحروب بين المسلمين وبينهم على مرّ سنوات طويلة ، ما بين غالب ومغلوب . . ينصرنا الله عز وجل تارة ، ويبتلينا أخرى .

وعليه فيجب أن نفهم في هذا الإطار ما فعله الغرب في الحروب الصليبية ، وفي الأندلس ، وما فعلوه في فلسطين ، والعراق وغيرها من بلاد المسلمين مما نراه ونسمعه .

فالوحشية ، والإصرار على تغيير دين المسلمين ، والعبث بعقائدهم هو مندرج بشكل أساسي تحت هذه المقدمة .

فإن قال قائل : هم قاتلونا لأننا غلبناهم ، فأفعالهم لها ما يسوغها .

والجواب على هذا من وجوه ، منها :

أولا : أن الكلام هنا قائم على وجود دين حق ودين باطل ، وأنه لا مساواة بينهما ، ولا مساواة بين الأفعال التي تصدر عنهما ؛ فالجهاد الذي جاهده المسلمون إنما كان لخدمة الدين الحق ، وأما قتال أهل الكتاب فقد كان لنصر الدين الباطل ولتحصيل أمور الدنيا .

فبناء على ذلك نقول : لا مساواة بين فعلنا وفعلهم ، قتالنا ممدوح ، وقتالهم مذموم .

فإن لم يسلّم المعترض بأن دين الإسلام حق وأن غيره باطل فهذا عنده خلل في فهم أصل المسألة ، فإن كان مسلما مقرا بصحة ما جاء في القرآن فما عليه إلا أن ينظر في النصوص الشرعية التي قررت هذه المسألة بشكل واضح .

ثانيا : الأثر الذي تركه المسلمون في البلاد التي فتحوها ما كان إلا أثرا إيجابيا طيبا ؛ فالمسلمون لم يخربوا الديار ، ولم يجوعوا أهلها ، وإنما عاملوهم بالعدل ، بل بالفضل والإحسان .

وأما هم فأثرهم كان سيئا ؛ ومجرد تأمل سريع في الواقع يكشف ذلك بوضوح .

وسيأتي -إن شاء الله- مزيد بيان لهذا عند الحديث عن الجهاد .

الانبهار بحضارة الغرب

الانبهار بحضارة الغرب من أبرز السمات الظاهرة عند كثير من المسلمين في هذا الزمان . . هذه الحالة قامت على أوهام ومغالطات كبيرة . . فما بين حالة سيئة تعشيها كثير من بلاد المسلمين ، وما بين وجه حسن يراه هؤلاء المسلمون للغرب ، نشأت للغرب في أذهان كثير من المسلمين صورةٌ وردية خيالية في كثير نواحيها . . ثم صار كثير من الناس يقيّم الغرب على أساسها ، ثم صاروا يحاكمون حالة المسلمين إلى تلك الصورة ، بل يحاكمون أصول دين الإسلام .

وإذا حللنا هذه الحالة في هذا المقام المختصر فإنه يمكننا أن نرى أرضية وأساسا لهذا الانبهار ، وأن نرى كذلك بعض العوامل التي قامت على تلك الأرضية ، وقادت إلى حالة الانبهار والتبعية .

أما الأرضية فيمكن تلخيصها بحالة الهزيمة النفسية التي يعشيها كثير من المسلمين ، والتي لها عوامل عدة ؛ منها :

أولا : حالة البعد عن الدين التي وقع فيها كثير من المسلمين ، وبخاصة على مستوى النخب .

ثانيا : حالة الجهل بأصول الإسلام ، مما سهل تقبل الشبهات عند قطاعات كبيرة من المسلمين .

ثالثا : حالة الهزيمة المادية ، المتمثلة بالاحتلال والغزو الذي تعرض له العالم الإسلامي ، والذي تبعه حالة الخضوع السياسي والاقتصادي للغرب ، وحالة الفساد والظلم الكبير الذي نراه في بلاد المسلمين . . فالهزيمة بحد ذاتها سبب لخضوع المغلوب للغالب .

وفي ذلك يقول ابن خلدون في فصل بعنوان [في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه و نحلته و سائر أحواله و عوائده] : "والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها و انقادت إليه ، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب... ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه ، في اتخاذها وأشكالها بل و في سائر أحواله ، و انظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً ، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم..." [تاريخ ابن خلدون ، (١/ ١٨٤)] .

وحسبنا تأكيدا لهذا أن نعلم أن الغربيين كانوا حريصين على التشبّه بالمسلمين لما كان المسلمون هم الغالبين وأهل القوة ، ومن ذلك ما ذكره الدكتور مصطفى السباعي من أن بعض طبقات الصليبيين كانت "تفرض على نسائها وبناتها -إذا بلغن الحلم- أن يضربن الخمار على وجوههن ، ويأبون عليهن أن يخرجن إلى

الأسواق سافرات ، بل إنهم ما كانوا يسمحون لهن بالخروج إلا للضرورة القصوى ، كالذهاب إلى الكنائس والحمامات . كما أطلق بعض الرجال الصليبيين اللحى تَشَبُّهًا بالشرقيين ، وكانوا يستعملون النعال التي يستعملها المسلمون في بيوتهم . ." [من روائع حضارتنا ، (٥٢ ، ٥٣)] .

يمكننا القول إن هذه أمور أساسية تشكل معا الأرضية التي تقوم عليها حالة الانبهار والتبعية .

وأما العوامل فيمكننا أن نرجعها إلى أمرين أساسيين :

أولا : الانبهار بالغرب من الناحية الدنيوية ؛ بما فيها الناحية العلمية ، والناحية العمرانية ، والناحية البيئية .

ثانيا : الانبهار بالغرب من الناحية الثقافية ؛ ويشمل ذلك الانفتان بشعارات الحرية ، والمساواة ، والعدالة ، والأخلاق ونحو ذلك .

وهذان الأمران يلعبان دورا تكامليا في ترسيخ الانبهار بالغرب ، وكل منهما يقوي الآخر ، وقد تطورت حالة الانبهار هذه عند بعض من المسلمين إلى حد جعل هذين الأمرين دليلا على صحة ثقافة الغرب .

هذا توصيف بسيط لهذه الحالة ؛ وسنحاول الآن أن نقف على هدي الإسلام في معالجة هذه الأمور . . أما ما يتعلق بالأساس والأرضية ، فعلاجها يكمن في أمرين متكاملين :

الأول : تعلم أصول الإسلام ، وإعادة اليقين وتعزيزه في قلوب المسلمين ، عن طريق عرض براهين صحة دين الإسلام ، وإظهار محاسنه في التشريع والحكم .

ويدخل في هذا تعزيز ثقة المسلمين بتاريخهم ، وبث روح العزة والكرامة في المسلمين .

الثاني : العمل على كشف الشبهات المثارة حول دين الإسلام وثقافته وقيمه ، وكذلك كشف الشبهات المثارة حول تاريخ الإسلام وحضارته .

ويدخل في ذلك بيان مواطن الضعف والخلل الكثيرة في الحالة الغربية ؛ وذلك بإظهار عوار الثقافة الغربية من حيث التنظير ، وبإظهار عوارها من حيث الواقع ، كإظهار حالة التفكك الأسري والاجتماعي في الغرب ، وإظهار ارتفاع معدلات الجريمة في الدول الغربية ، ونحو هذه الأمور التي تظهر للمسلم الوجهَ الآخر للغرب .

وأما معالجة العوامل التي قادت حالة الانبهار **فما يتعلق بالانبهار بالناحية الدنيوية** ؛ فإن علينا هنا أن نستحضر قاعدتين أساسيتين علمنا إياهما كتاب ربنا :

أما القاعدة الأولى : فهي أن التقدم والرقي ليس هو معيار الصلاح والفساد ، وأن الحضارة وحدها ليست هي عنوان الفلاح ، بل الدنيا تابعة للآخرة ، فإن عمرها المؤمن واتقى ربه وجعل الآخرة همه ، كان عمرانه للدنيا وتقدمه فيها محمودا مرضيا عند الله سبحانه وتعالى ، وإن كفر بربه وانشغل بإقامة الحضارات بعيدا عن الالتزام بأمر الله كان فعله هذا مذموما ، بل كان وبالا عليه في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾[آل عمران : ١٩٦-١٩٧] .

وكم حدثنا القرآن عن أقوام عمروا هذه الدنيا وتقدموا فيها ، وبهروا الناس بتقدمهم العمراني والعلمي ، فما كان هذا التقدم إلا سببا في استحقاقهم الذم ، والعقوبة من الله سبحانه .

ولو كانت مجرد الحضارة سببا لأن يكون صاحبها على الحق لكان فرعون وعاد ثمود ونحوهم من أعداء الأنبياء أهلَ حق .

وأما القاعدة الثانية : فهي أن ما يُعطاه الكفار في هذه الدنيا من المتاع إنما هو متاع قليل ، زائل متحول غير ثابت ، كما قال تعالى : ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ

جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾[آل عمران : ١٩٦-١٩٧] ، وقال تعالى : ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾﴾[لقمان : ٢٤] .

وهذه القاعدة تنبّهنا إلى عدم الاغترار بالحالة التي عليها الغرب الآن ، بل إننا إذا أنعمنا النظر لوجدنا أن هذه الحضارة تحمل في طياتها أسباب دمارها وفنائها .

وأما ما يتعلق بحالة الانبهار بالناحية الثقافية ، فقد سبقت معالجة شيء من الناحية الأخلاقية والقيمية عند الغرب في مقال : لماذا يتحلى الغربيون بالأخلاق الحسنة؟

ولكن نزيد هنا قاعدة في التعامل مع مثل مصطلحات (الحرية ، والمساواة ، العدالة) ، وهي أن هذه المصطلحات مصطلحات براقة جميلة محببة إلى كل نفس ، ولكنها في الوقت ذاته مطاطة فضفاضة مجملة ، يمكن أن تدخل فيها معان كثيرة ، منها ما هو حق ومنها ما هو باطل ؛ ولذلك فعلى المسلم ألا يقبل هذه المصطلحات جملة وألا يرفضها جملة . . عليه أن يحلّلها إلى المعاني التي تدخل فيها ، ثم يحكم على كل معنى بشكل مستقل .

فمصطلح الحرية -مثلا- يقال فيه : الحرية تحتمل أمورا : فإن كان المراد : عدم عبادة الإنسان لإنسان آخر أو لوثن ، فهذا معنى محمود ، بل هو دين التوحيد .

وإن كان المراد : حرية الفعل أو الكلام في دائرة المباح في الشريعة ، فهذا معنى محمود كذلك .

وإن كان المراد : حرية فعل الحرام أو قوله ، كالزنا وشرب الخمر ، والمجاهرة بالدعوة إلى الباطل والإلحاد والردة ، فهذا مذموم ، ولا نقبل الحرية بهذا المعنى .

نظرة على التأثر الإسلامي بالفكر الغربي

المراد هنا توصيف شيء من حالة التأثر الإسلامي بالفكر الغربي . . وقد بدأتْ هذه الحالة مع بداية تسلل الهزيمة النفسية إلى العالم الإسلامي ، وتجلّت بعد الهزيمة العسكرية ؛ فظهرت مدارس حاولت إعادة تفسير الإسلام بما يتوافق مع الحضارة الغربية .

هذه الحالة ليست بجديدة على الأمة الإسلامية ، بل سبقتها حالات فُتن فيها فئام من أمة الإسلام بثقافات أخرى ، ثم تشربوها وتشبعوا بها ، ثم راحوا يحاكمون نصوص الشريعة إليها ، كما فعل الفلاسفة قديما .

ومظاهر هذه الحالة في هذا العصر لا تخفى على بصير . . دعاة يخرجون على الأمة بما تنكره ولا تعرفه ، بدعوى التجديد والإصلاح . . مناهج مدرسية وجامعية مخترقة . . جرأة من قبل كثير من الناس على الكلام والطعن في مسلّمات الشريعة . . خلخلة للعقيدة في قلوب كثير من الناس وبخاصة الشباب .

ولا شك أن هذه الظاهرة العامة قد ساهم في تكوينها عوامل عديدة . . وحديثنا هنا عن الجانب الفكري من هذه الظاهرة ، وهو ما يشكل لبها وأساسها . . فمن أهم أسباب ظهور هذه الحالة :

أولا : الجهل بالشريعة وحقائقها ؛ فكثير من هؤلاء انطلقوا من فهم مغلوط للشريعة الإسلامية ، مما سهل تقبلهم لفكرة "تجديد" الإسلام .

ثانيا : التأثر بواقع المسلمين الخاضع للغرب وثقافته ؛ وهو عامل مهم جدا ، وقد سبق الكلام عليه .

ثالثا : التخلف العلمي والحضاري الذي طال الأمة الإسلامية في هذه الحقبة .

رابعا : كثرة الهجرة والابتعاث إلى الدول الغربية .

خامسا : النشاط الاستشراقي الذي عمل على بث الشبهات ، ونشر الطعن في دين الإسلام . . وهو لا يزال يشكل المصدر الرئيس الذي يعتمد عليه بعض المسوّقين /المفكرين العرب في طعنهم المبطن أو المعلن في الشريعة .

وهنا لا بد من التنبيه إلى أن المتكلمين في هذا ليسوا على درجة واحدة ، وليسوا أصحاب منطلقات واحدة ؛ فمنهم من ينطلق من تعظيم دين الإسلام ؛ ولكن تؤثر فيه الثقافة الغالبة قليلا أو كثيرا ، فيسعى لإزالة ذلك التعارض ليخرج بفهم جديد لبعض المسائل ، يحافظ من خلاله على إسلامه ، ولا يخالف في الوقت ذاته الحضارة الغربية عموما .

ومن أهم أدواتهم في ذلك : إنكار الإجماع ، ومحاولة تجاوز كثير من الأحاديث النبوية ، والتوسع في استعمال مقاصد الشريعة ومحاولة تجاوز النص ، والمبالغة في إعمال مبدأ التيسير في الشريعة .

ومنهم من ينطلق من تعظيم الغرب بشكل أساسي ، ثم يحاول تطويع دين الإسلام بشكل سافر ؛ وهذا الصنف لا حدود له يقف عندها ، ولا يعبأ أصلا بسخافة تأويلاته وضعفها ، لأنه لا يقيم كبير وزن للشريعة ؛ فإن استطاع التوفيق بين الثقافة الغربية وبين الشريعة بأي طريقة فعل ، وإن لم يستطع لم يتردد في أن يضرب بالشريعة عرض الحائط .

ومن أدوات هؤلاء : إنكار السنة ، ومهاجمة التراث الإسلامي عموما ، والنيل من أئمته ومصنفاتهم ، وتعظيم ما يظنونه "عقلا" وتقديمه على الشريعة ، والقول بنسبية الحقيقة ، والقول بتاريخية النص الشرعي ، والانطلاق من النزعة الإنسانية المستغنية (التي تجعل الإنسان هو أساس هذا الكون) .

وقد يحصل تداخل في استعمال هذه الأدوات بين الفريقين .

هذا ، ولا يعني تأثّر شخصية إسلامية بشيء من أفكار هذا الاتجاه أن يكون موافقا له في كل آرائه أو أكثرها ؛ بل قد يحصل تأثر في مسألة أو مسألتين أو أكثر .

ومن أهم المعالم العملية لهذه الحالة عموما :

أولا : الميل إلى تأطير مفاهيم إسلامية غيبية بإطار مادي ، إما بتطويعها أو إنكارها ، كما في موقف بعضهم من عذاب القبر ، وبعض أشراط الساعة ، وأحداث يوم القـــــــــيامة ؛ حيث يحاولون تفسيرها بما يخرجها عن كونها أحداثا حقيقية .

وليس المذموم هنا تقريب صورة المسألة عن طريق مثال مادي ؛ بل المذموم تغيير طبيعة مسألة غيبية بحيث تخرج عن كونها غيبية أو تقارب ذلك .

ثانيا : الميل إلى إنكار بعض الأحكام والحدود الشرعية التي تتصادم كليا أو جزئيا مع المفهوم الغربي لـ"حقوق الإنسان" ، وفي هذا الإطار تكلموا في الحدود عموما ، وركزوا على بعض المسائل ؛ كعقوبة الردة ، ورجم الزاني المحصن ، والموقف من ملف المرأة عموما (الحجاب ، الولاية ، الميراث ، الاختلاط . .) ، ومفهوم الحرية الشخصية .

ثالثا : النظرة إلى الغاية من الحياة ؛ حيث طغت نظرة عمارة الأرض على ما أرشدت إليه النصوص الشرعية من أن الغاية من خلق الإنسان هي عبوديته لله ، وأن عمارة الأرض أمر تابع ؛ وقد ترتب على هذه النظرة مواقف عملية من بعض المسائل ، كالتهوين من أمر تحكيم الشريعة في مقابل الحرص على التطور والحضارة .

إن حالة الهزيمة النفسية مع وجود حالة من الجهل أدت إلى انتشار مثل هذه الأفكار بين المسلمين . . والأصل في المسلم أن يكون نبيها وأن لا يستجيب إلى تلك الدعاوى ذات الطابع البراق ، بل عليه أن يمحص الكلام ويعمل عقله وتفكيره فيها ، فإن لم يستطع فليسأل نفسه سؤلا : لماذا لم تظهر مثل هذه الأقوال إلا بعد ضعف المسلمين وظهور الكفار عليهم؟ لماذا لم يكن المسلمون يرون إشكالا في هذه المسائل عموما قبل هذا الغزو الثقافي؟

مثل هذا السؤال كَفَيل أن يفتح للمسلم بابًا يبصره الصواب ، بعد توفيق الله تعالى له .

ومن أهم وسائل العلاج العامة التي يمكن محاربة هذه الحالة من خلالها :

أولا : تعزيز اليقين في قلوب المسلمين بأصول دين الإسلام ، عن طريق عرض هذه الأصول بشكل صحيح ، مبرهن وعصري .

ثانيا : تعزيز صلة المسلمين بتاريخهم ، ولفت أنظارهم إلى الحضارة العظيمة التي بناها المسلمون .

ثالثا : إيقاظ وازع العزة والكرامة في نفوس المسلمين .

رابعا : التصدي لأصحاب الشبهات والفكر الهدام ، وبيان باطلهم بأساليب ناجعة تصل إلى الفئات التي أفسدوها .

خامسا : التركيز في ذلك كله على فئة الشباب .

تأثير النشاط التغريبي على بلاد المسلمين

نختم الحديث عن موقف المسلم من حضارة الغرب بذكر تأثير النشاط التغريبي على بلاد المسلمين ، وهو تأثير عام يشمل كل بلاد المسلمين على اختلاف فيما بينها ، وهي ظاهرة قديمة حديثة ، وقد تكلم فيها عدد من الكتّاب . .

ومن الإشكالات الكبيرة في هذه المسألة : تأثر كثير من المسلمين بهذا النشاط من غير أن يشعروا ، بحيث ينقادون ويسيرون في ركب التغريب فرحين مسرورين .

ولا يخفى أن ضعف الإيمان ، وضعف العلم بأساسيات الشريعة ، والهزيمة النفسية من أسباب ذلك كما تقدمت الإشارة إليه .

ولكننا هنا بصدد بيان طريقة من أهم طرق الغرب في اختراق المجتمعات المسلمة ؛ وهي تتمثل في عدم تصريح الغرب بغايته ؛ فهو يدخل بلاد المسلمين من باب الإصلاح ، ويستخدم وسائل قد لا يشكّل ظاهرها قلقا أو تحسّسا لدى كثير من المسلمين ، ثم يبث ثقافته من خلال هذه الأنشطة ، من خلال جمعيات ومؤسسات ترفع شعارات مدنية ومجتمعية ، تتلقى الدعم الكامل من دول الغرب ، وتدين بالولاء لمبادئه ، وتأخذ على عاتقها تنفيذ ما يطلب

منها ، وذلك عبر وسائل كثيرة ، منها : المساعدات المادية ، والمشاريع الصغيرة .

ومنها : التعليم ، وذلك عبر السيطرة على بعض المؤسسات التعليمية ، والمدارس ، وعبر عقد دورات خاصة في مقرّاتهم .

ومنها : النشاطات اللامنهجية في المدارس .

ومنها : تسخير بعض الأبواق الإعلامية في سبيل خدمة الأجندات الغربية .

وهم يركزون في هذا على زرع مجموعة من المفاهيم الغربية (بشكل غير مباشر) ، مثلِ : حرية الاعتقاد ، وحرية المرأة ، وعدم إلزامها بالحجاب ، والتزهيدِ في الزواج ، وتقويةِ نزعة الصراع بين الرجل والمرأة ، والتركيز على نزع الحياء من البنات ، وحريةِ التصرف دون قيود شرعية أو مجتمعية ، وكسرِ الحواجز النفسية والمادية بين الشباب والفتيات عبر الحرص على الاختلاط في أي نشاط ، وزرع نفسية الترفع على المجتمع المحيط ، وتشويه التاريخ الإسلامي .

وأما آثار كل تلك الجهود فإنها ظاهرة لكل بصير ، ولم يعد من الصعب متابعتها ورصدها .

ومن هذه المظاهر :

أولا : الاهتمام بالمفاهيم الغربية المتعلقة بقضايا المرأة ، حتى قارب هذا الاهتمام حد التقديس . . يظهر هذا من خلال الاحتفال

بيوم المرأة ، وتعطيل الدوائر الرسمية فيه ، والمطالبة بتعديل بعض القوانين بما يتوافق مع النظرة الغربية ، حتى ولو كان فيها ما يخالف الشريعة .

ثانيا : دخول بعض المواد التي تبث المفاهيم الغربية حول الدين ، والمرأة ، والحكم ، في المناهج المدرسية والجامعية .

ثالثا : تغييب القدوات الإسلامية وتقديم نماذج غربية بديلا عنها كقدوات للشباب .

رابعا : ظهور التقصير في الالتزام بالحجاب الشرعي ، سواء من ناحية التهاون في شروط الحجاب ، أو من حيث تأخر ارتداء البنات للحجاب ؛ وليس الكلام هنا عن التقصير في الحجاب مع اعتقاد أنه تقصير وإثم ، بل الكلام هنا عن التقصير في الحجاب مع اعتقاد أنه حرية شخصية ، أو أنه غير واجب ، أو اعتقاد أن الالتزام بشروط الحجاب عبارة عن تشدد .

خامسا : وجود حاجز بين الشباب وبين المفاهيم الدينية التي تعارض الغرب كالتي تقدم ذكرها ، وقد يصل الأمر إلى النفرة في بعض الأحيان .

سادسا : ظهور الأنشطة المختلطة بشكل كبير ، حتى صار الاختلاط كالملح في الطعام . . فلا بد من الاختلاط حتى في

الأنشطة التي "قد" لا يكون للاختلاط فيها "سبب" . . وكأن الهدف هو الاختلاط ، ثم تصنع الأنشطة له!

سابعا : ظهور الماراثونات التي تشارك فيها الفتيات ، مع الترويج الإعلامي لها على أنها مظهر من مظاهر النهضة والتحرير .

ثامنا : طغيان مبدأ ما يسمى بالسلمية في مواجهة الاحتلال ، فصار الرقص والغناء والرسم ونحو ذلك هي الطريقة المثلى لإثبات ما يسمونه بالهوية الوطنية .

الاحتساب والجهاد

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الجهاد . . طبيعته والحكمة منه

الحكمة من جهاد الطلب ، وجمالية تشريعه

ما الفرق بين الجهاد وبين الغزو عند الأمم الأخرى؟

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قبل أن نتحدث عن الجهاد بمعناه الخاص ، فإنه من المناسب أن نتحدث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدخوله في المفهوم العام للجهاد .

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم معالم شخصية المسلم ، بل من أهم معالم المجتمع المسلم . . شعيرة من شعائر الإسلام العظيمة ، وعلامة على صحة الأمة واستقامتها .

كثيرة هي النصوص الشرعية التي أمرت المسلمين بهذه الشعيرة العظمة ، فمنها ما يجعل هذه العبادة من صفات عباد الله الصالحين المنصورين ، كما قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج : ٤١] ، ومنها ما يأمر الأمة أن تكون أمة آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

ومن أهم الأسس التي تقوم عليها هذه الشعيرة :

الأساس الأول : أن الحرية لها قيود تضبطها ؛ فكل إنسان في المجتمع المسلم له الحرية فيما يفعل أو يقول إذا كانت ضمن حدود

الشرع ؛ أي ليس فيها انتهاك لمحارم الله تعالى ، ولا اعتداء على حقوق الناس . . فلا حرية مطلقة في الإسلام ، إنما هي حرية ضمن حدود الشريعة .

ولا بد هنا من التنبيه إلى بعض الشعارات التي يرفعها بعض الناس في وجه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وهو قول بعضهم : إن الحرية يجب أن تكون مطلقة غير مقيدة بأي قيد . .

إن الأصل في المسلم الواعي أن لا يغتر بهذا الشعار ؛ لأنه عند التأمل فيه فإننا لا نجده يرفع غالبا إلا في وجه الشعائر الإسلامية ، أما إذا تعلق الأمر بالثقافات الغربية ، أو إنفاذ القوانين ، أو حتى تغيير ثقافات الشعوب إلى الباطل قهرا فإننا لا نسمع هذا الشعار . . ولذلك فإن المسلم الواعي يترجم هذا الشعار إلى عبارة تظهر حقيقته ؛ وهي أن القيود التي تفرض على الناس لا ينبغي أن تكون قيودا دينية ، أو إسلامية بشكل خاص .

ولتوضيح هذه الفكرة أكثر ليسأل المسلم نفسه سؤالا : هل هناك بالفعل دولة أو مجتمع فيه حرية مطلقة ، وليس فيه أي نوع من القيود . . لا شك أن هذا المفهوم بحرفيته يحمل معاني مرعبة ، تنشر الفوضى والجرائم ، وتهدم الدول ، وتقوّض الاستقرار . . فهل للقاتل والسارق أن يُدخلوا أفعالهم ضمن هذه الحرية "المطلقة"؟ هل يمكن لأحد أن يبدي رأيه في بعض الدول الغربية حول اليهود؟ أو

الشذوذ مثلا؟ أم أنه سيجد أمامه القوانين والضغوط والعداء والقوة؟! . . نعم سيجد ذلك كله أمامه إذا "انتهك" ما تعده تلك الثقافات من ثوابتها ومسلّماتها .

إن كل أمة تقيد الحريات بما يتوافق مع ثقافاتها . . وثمة حدود للحرية عند الجميع ، وثمة خطوط حمراء عند كل أمة لها هوية تميزها عن غيرها . . أما الذين يرفعون شعار الحرية "المطلقة" فهم إما أنهم لا يعيشون في كوكب الأرض ، أو أنهم لا هوية لهم ، أو أنهم يرفعونه ويقصدون به : حرية مطلقة عن قيود الإسلام فقط!

إن المسلم المتقين من دينه ، المعظم لشعائر الله تعالى يعلم أن تقييد الحريات بأحكام الإسلام هو التقييد الحق ، لأنه قائم على الدين الحق . . تقييد لا ظلم فيه ولا فساد ، لا مكان فيه لنزوات الفساق ، ولا مصالح أصحاب الثروات .

الأساس الثاني : أن المعاصي لها تأثير على المجتمع كله ، وهذا التأثير قد يكون ماديا ملموسا بشكل مباشر ، وقد يكون الاعتماد في معرفته على النصوص الشرعية المخبرة بذلك .

أما التأثير الملموس فمن أمثلته تأثير التعامل بالربا على المجتمع والاقتصاد ، وتأثير التبرج وكشف العورات على حفظ عفة المجتمع وحماية المرأة ، وتأثير الجرائم على أمن المجتمع ، وتأثير الفساد المالي على استقامة أمور الدولة ، وتأثير الظلم على تماسك الدولة خارجيا

وداخليا ، وتأثير الخيانة على صمود الأمة في وجه أعدائها ، وتأثير ترك الجهاد على عزة الأمة وقوتها وحفظ أرضها .

وهذا النوع من الآثار السلبية للمعاصي قد يكون مذكورا في بعض النصوص الشرعية كذلك ، ولكن المقصود هنا التفريق بين هذا النوع والنوع الثاني من الآثار وهو الذي لا طريق لنا إلى العلم به إلا النصوص الشرعية ؛ وذلك كتأثير منع الزكاة على نزول المطر ، وتأثير المعاصي عموما على نزول البلاء .

الأساس الثالث : المجتمع له مسؤولية جماعية في بعض الأمور ؛ وهذا مرتبط بالأساس الثاني ؛ فإذا كانت المعاصي تؤثر سلبا على المجتمع كله فإن المجتمع له الحق بل يجب عليه منع هذه المعاصي .

ومن النصوص المتعلقة بهذا الأساس والذي قبله قول النبي ﷺ : «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعا» [أخرجه البخاري] .

وأما مجالات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنها واسعة اتساع العنوان الذي تحمله ؛ فكل ما يدخل في (المعروف) وكل ما يدخل في (المنكر) هو مجال لهذه الشعيرة .

وبذلك نعلم قصور نظرة بعض الناس الذين يظنون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يختص بمعاص دون أخرى ، أو يشمل أناسا ويستثني آخرين . . وبشكل أوضح فالمراد هنا إزالة ذلك التصور الذي يحمله بعض الناس والذي يحصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بعض المعاصي التي يفعلها الناس . . والحق أن هذه الشعيرة تشمل الحاكم المحكوم ، تشمل النهي عن الفساد والظلم والخيانة ، كما تشمل النهي عن النظر إلى المحرمات والبيع عند أذان الجمعة . . فالمسلم صاحب النظرة المتزنة ، المعظم لشعائر الله لا يستثني نوعا من المعاصي إرضاء لجهة معينة ، أو اتساقا مع قناعات مسبقة .

إن ترك هذه الشعيرة المباركة له آثار سلبية عدة على المجتمع المسلم ؛ فهو سبب لعدم استجابة الدعاء بعد نزول البلاء ، كما قال النبي ﷺ : «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم» [أخرجه الترمذي] .

ومن هذه الآثار أن ترك هذه الشعيرة سبب لظهور العداوة والبغضاء بين الناس ؛ فمن حيث يظن بعض من يترك هذه الشعيرة أنه يؤلف القلوب فإنه في الحقيقة يساهم في إظهار حالة البغضاء بين الناس . . كيف لا وبعض المعاصي سبب لظهور المذاهب الفكرية الهدامة التي تفرق الأمة؟ كيف لا وبعض المعاصي تربي في النفس الأنانية؟ كيف لا وبعض المعاصي تؤدي إلى انتهاك حقوق الناس؟

ومن نافلة القول أن ننبّه هنا إلى وجود أحكام وآداب لشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا بد للمسلم التقيد بها ، كالرفق ، والكلام بعلم ، ومراعاة المصالح والمفاسد . . ونحوها من الأمور التي يمكن أن تطالع في مظانها .

الجهاد.. طبيعته والحكمة منه

الجهاد في سبيل الله تعالى من أهم ما يشكل معالم هوية الأمة الإسلامية ، وهو من أكثر القضايا التي سلط عليها أعداء الإسلام شبهاتهم ؛ طعنا في أصل مشروعيته ، وإثارة للإشكالات حول ما يتعلق به . . حتى وصل الأمر إلى استشكال بعض المسلمين ما يتعلق بجهاد الطلب ، أو حتى بجهاد الدفع .

لن نتحدث هنا عن أحكام الجهاد التفصيلية ، ولكننا سنحاول الوقوف على أهم المعاني التي يمكن أن تساهم في تكوين منطلقات صحيحة في التعاطي مع هذه المسألة ، بحيث يكون المسلم بعيدا عن الشبهات ، فإن عامة الشبهات حول الجهاد تقوم على تصور غير صحيح عنه .

والكلام في هذه المقدمة سيكون من خلال أمور :

أولا : الجهاد من أهم شرائع الإسلام التي شُرعت لتحقيق حِكَم بالغة ، وهو من أعظم العبادات التي أمر الله تعالى بها . . والجهاد في الإسلام هو قتال ضروري لحماية مصلحة الدين ، ورفع الظلم عن المستضعفين .

وهو مرتبط بطبيعة الحياة التي يعيشها البشر . . فالبشر لم يكفّوا عن القتال والحروب في وقت من الأوقات ، فكل أمة تقاتل لأجل

أهدافها ، ولتحقيق مصالحها حتى لو كانت أهدافها باطلة ، ومصالحها غير مشروعة .

وبالجملة فمبدأ القتال موجود عند الأمم كلها ، ولا يوجد أمة قوية . . ولا يوجد أمة محترمة بين الأمم الأخرى إلا إذا كانت تقاتل .

ولذلك فإن فكرة القتال بحد ذاتها ليست مذمومة ، وإنما تكون ممدوحة أو مذمومة بحسب الهدف الذي يراد الوصول إليه من خلال القتال ؛ فإن كانت الغاية محمودة ، كالسعي إلى إعلاء الدين الصحيح فهو قتال ممدوح . وإن كان القتال لغاية مذمومة أو لنصرة مبدأ باطل أو دين محرف فهو قتال مذموم .

ولذلك فإن الإسلام شرع الجهاد ، لأنه دين واقعي ، يأمر بالأخذ بالأسباب ، ويأمر بالتعامل مع الأمور بما تقتضيه طبيعة الحياة ، ولكن مع ذلك فإن الإسلام لم يأمر بقتال كالقتال الذي تفعله غيرها من الأمم ، بل هو قتال يختلف في أهدافه وغاياته ، ويختلف في الأحكام والتعليمات التي تتعلق به .

ثانيا : من أهم المنطلقات التي تعين على فهم طبيعة الجهاد : أن مسألة صحة دين الإسلام ليست مسألة نسبية ، فلا يقال : (إن كل دين صحيح عند أهله) ، فمن المعروف أن كل دين صحيح عند أهله ، ولكن مجرد اعتقاد الإنسان أنه على دين صحيح لا يعني أنه

على دين صحيح بالفعل ، فالبحث هنا في صحة الدين ذاته ، لا فيما يعتقده الإنسان في دينه .

فإذا علمنا أن المراد هو البحث في صحة الدين ذاته ، فالأمر راجع إلى البراهين والأدلة التي يقوم الدين عليها ، وعلى مدى قوتها ، وظهورها . . لا على وجهة نظر كل صاحب دين في دينه .

إذا علمنا هذا فإن براهين دين الإسلام هي التي يتوفر فيها هذا الأمر ، وذلك لأمور منها :

١- أن براهين دين الإسلام براهين قوية ساطعة ، قريبة من العقول كلها ، لا يمكن لأحد ينظر فيها بتجرد إلا أن يسلّم لها .

وهذا يشمل البراهين على وجود الله تعالى ، والبراهين على صحة نبوة محمد ﷺ ، وعلى صحة القرآن ، وما في التشريعات من إحكام وإتقان . . وتفصيل هذه البراهين طويل جدا ، وهو مبثوث في كتب العلماء ، ولكن المراد هنا التنبيه على قوتها وقربها .

٢- أن الإنسان يجد في دين الإسلام الإجابة الشافية على الأسئلة الوجودية الكبرى التي تشغل ذهن الإنسان ، كسؤال الغاية من الوجود ، ونهايته ، ومآل الإنسان بعد الموت .

٣- أن دين الإسلام موافق للمفاهيم العقلية الأساسية التي يتفق عليها البشر ، وهذا من الملامح الهامة التي تساعد غير المسلم على معرفة أنه الدين الحق .

٤- وما يساعد على ذلك أيضا : أن دين الإسلام موافق للفطرة الإنسانية ، يجد الإنسان معه الطمأنينة والراحة .

وبناء على ذلك فإن دين الإسلام يحق لأهله الدعوة إليه دون غيره من الأديان ، كما يحق له القتال -كما سيأتي- .

ثالثا : الجهاد في حقيقته : قتال وحرب . . والحرب طبيعتها قاسية ، لا تحبها النفوس ، لما فيها من قتل وأسر واضطراب لأحوال البلاد عامة . . إلا أن طبيعة الحياة ، ومقتضى نشر الحق والدفاع عنه يجعل هذا الأمر الثقيل على النفوس أمرا لازما ، لما فيه من مصالح ، ولما في تركه من مفاسد ، كما قال تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة : ٢١٦] ، وقال : ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ [النساء : ٨٤] .

وبناء على ذلك فإن الاعتراض على الجهاد بأن فيه "قسوة" هو اعتراض لا معنى له .

رابعا : فيما يتعلق بالحكمة من الجهاد والغاية منه ، فإن حِكم الجهاد في الإسلام متعددة ، ومن أهمها :

١- الدفاع عن بلاد المسلمين إذا تعرضت لهجوم من قبل أعدائها ؛ فتعرض بلاد المسلمين للاعتداء من قبل أعدائها يؤدي إلى التأثير على دينها الذي هو أغلى ما تملكه ، ويؤدي إلى قتل المسلمين ونهب ثروتاهم .

٢- إزالة العوائق التي تقف في وجه نشر دين الإسلام .

وهذا قائم على أن دين الإسلام هو الدين الحق ، وعلى أنه يجب على البشرية جميعا الدخول فيه ، لأنه رسالة الله الخاتمة إلى البشرية .

وبناء على ذلك فإن دين الإسلام يحق لأهله دعوة البشر إليه . . ولكن لما كانت أهواء البشر مختلفة متضاربة ، ولما كان بعض الناس قد يمارسون ما في وسعهم لإبعاد الناس عن دين الإسلام ، بمنع الدعوة ، أو اضطهاد المسلمين . . فإن الإسلام شرع الجهاد هنا لأجل إزالة العوائق التي تحول بين الناس وبين الإسلام .

وإذا تبين هذا الأمر فإنه يمكننا أن نتعامل بطريقة صحيحة مع سؤال : هل انتشر الإسلام بالسيف؟

فإن كان المراد بالسؤال أن الاسلام لم ينتشر إلا بالسيف ، وأنه أكره الناس جميعا على الإسلام ، وإلا قَتَلهم ، فهذا غير صحيح .

وإن كان المقصود أن الجهاد هو أحد أسباب انتشار الإسلام ، وأحد أسباب دفع ظلم الظالمين الذي يمنعون الناس من الإسلام ، وأحد أسباب إزالة العوائق بين الناس وبين الإسلام ، وبالطريقة التي تقدم بيان بعض معالمها ، فهذا صحيح . . مع ملاحظة أن هناك وسائل أخرى انتشر بها الإسلام كذلك ، كالتجارة ، وحسن معاملة الناس في البلاد المفتوحة ، ومعاينة الناس لعدالة الإسلام ، وسُمُوّ تشريعاته ، وموافقة دين الإسلام للفطرة ، ورفعه للظلم عن الأمم المستضعفة .

٣- رفع الظلم عن المستضعفين من المسلمين أو غيرهم في بلاد غير المسلمين .

الحكمة من جهاد الطلب، وجمالية تشريعه

لم يختلف المسلمون يوما في كون الجهاد مكونا أساسيا من مكونات الإسلام ، ومقوما أساسيا من مقومات حياة المسلمين . . ومما يشير إلى مركزية مبدأ الجهاد في الإسلام قوله ﷺ : «من لم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات ميتة جاهلية» [أخرجه مسلم] ، فالنبي ﷺ لم يكتف بالحث على الجهاد ، بل جعله جزءا من ثقافة المسلم وتفكيره ، بحيث إن من حاد عن طريقة التفكير الصحيحة في هذا الباب فإنه يبتعد عن روح الإسلام وطبيعته .

ولما كانت أحوال الدول ما بين غازية لغيرها ، ومدافعة عن نفسها ، فقد قسم الفقهاء -اعتمادا على النصوص الشرعية- الجهاد إلى قسمين : جهاد دفع ، وجهاد طلب . . وخصوا جهاد الدفع بحال وجود الاعتداء المباشر على بلاد المسلمين ، وجعلوا جهاد الطلب لما سوى ذلك ، من توقّع عدوان ، أو رفع ظلم ، أو نشر للإسلام .

وفَهْمُ دلالة هذا المصطلح لدى الفقهاء قديما له دور لا بأس به في رفع الإشكال عن كلام بعض المعاصرين الذين يوسّعون مفهوم جهاد الدفع ، ثم يحاولون التنكر لجهاد الطلب . . وهذه الحالة إنما هي مؤشر لما هو أعظم من ذلك ، فإنه ومع الضعف الذي لحق بالمسلمين أصبح مبدأ الجهاد -بقسمَيه- مرفوضا لدى الدول الاستعمارية ،

ولكن النقد الفكري توجه بشكل صريح إلى جهاد الطلب ، ظنا من أصحاب ذلك النقد أنه الخاصرة الضعيفة في المسألة ، بناء علـــــــــى الاحتكام إلى بعض الموازين الغربية .

ولكن تلك الشبهات لا تلبث أن تزول إذا نظرنا إلى المبادئ والأسس التي يقوم عليها جهاد الطلب لدى المسلمين ، بل تظهر لنا أهمية هذا الجهاد وضرورته ، وأنه من محاسن التشريعات التي تساهم في تثبيت الدين الحق كواقع ، والذي يؤدي بالضرورة إلى انتشار العدل بين البشرية كلها .

إن جهاد الطلب يقوم على أساس عقلي اجتماعي ، يتعلق بطبيعة البشر ، وبطبيعة العلاقة بين الدول التي قامت منذ بداية حياة البشر على الأرض . . إننا لو نظرنا إلى الإنسان باعتباره فردا لوجدنا أن الطمع وحب التملك -مثلا- من أهم الصفات الذميمة التي يحلمها إن لم يُزَكِّ نفسه ، ولذلك نرى اعتداء الناس على بعضهم بالقتل والسرقة ونحو ذلك . . وإذا كان هذا الأمر على مستوى البشر كأفراد فإنه أظهر على مستوى الدول التي يقيمونها ، فإنه ما من دولة ناجحة إلا وتتجه إلى التوسع والسيطرة على غيرها ، وذلك لأسباب متنوعة ، كالبحث عن مصادر الثروة الأرضية والبشرية ، وكالحرص على نشر المبادئ الخاصة بتلك الدولة .

ولذلك فإنه لو قدر لنا أن نطّلع على صورة تجمع لنا تاريخ البشر من هذه الناحية ، فإننا لن نرى إلا حروبا بين الدول التي يقيمونها ، وصراعا مستمرا على المصالح وحول الأفكار .

ولو قُدّر لنا أن نطلع على تلك الصورة كذلك ، لما وجدنا زمانا يخلو من دولة قوية أو تحالف دول قوي ، يتبعه دول ضعيفة ، وتكون هذه الدول الضعيفة تابعة للأقوى ثقافيا واقتصاديا وسياسيا . . تلك هي سنة الله تعالى في خلقه .

فإذا تبين أن مبدأ القتال بين الدول هو من المكونات الأساسية الواقعية في حياة البشر ، تبين أن ما يأمله بعض الناس من وجود علاقات دافئة بين الدول جميعا ، مع عدم علو دولة على أخرى . . تبين أنه فكر غير واقعي يقوم على أوهام ، إن لم يكن أداة تستخدمها بعض القوى في سبيل تخدير الشعوب الضعيفة وتغييب وعيها .

وبناء على ما تقدم كذلك ، فإننا نستطيع تقريب المسألة أكثر بالقول : إن مبدأ القتال ليس من الأمور المذمومة بحد ذاتها ، لا عقلا ولا عرفا بين البشر ، وإنما يذم القتال أو يحمد بناء على الهدف والغاية التي يقوم لأجلها ، وبناء على الممارسات التي تكون أثناء القتال ؛ فإذا كانت الغاية محمودة ، فيها السعي إلى إعلاء الدين الصحيح فهو قتال ممدوح ، وإذا كان القتال لغاية مذمومة أو لنصرة

مبدأ باطل أو دين محرف فهو قتال مذموم . . وتمام التأصيل لهذه المسألة يكون باستحضار كون دين الإسلام حقا ، وأن غيره من الأديان والأفكار محرف أو منسوخ أو باطل . . وبناء على ذلك فإن دين الإسلام يحق لأهله الدعوة إليه دون غيره من الأديان ، كما أن قتالهم لأجل هذا الدين يكون قتالا حقا دون غيره .

إن الإسلام دين واقعي ، يأمر أتباعه بالأخذ بالأسباب ، ويعلمهم أنهم كسائر البشر من هذه الناحية ، بل ينهى عن تعلق المسلمين بالآمال والأوهام من غير أخذ بالأسباب المعروفة ، ولا يربي أهله على انتظار الخوارق ليرتفع شأن الدين الحق ، أو ليؤخذ للمظلوم حقه . . فإذا قامت لهم دولة فإنهم داخلون فيما تقدم من سنة الله تعالى في خلقه ، فهم معرضون لصور شتى من الاعتداءات ، وكذلك فإن ما معهم من الحق والهدى لا يمكن نشره إلا بإزالة العوائق التي تحول بين الناس وبين الهدى ، وهذا يلزم منه وجود القتال والمبادرة إليه في حالات ، وكذلك رفعهم الظلم عن المستضعفين لا بد فيه من قتال أو مبادرة إليه . . فتبين بذلك أن القتال في سبيل تحقيق تلك الأوامر الإلهية هو عامل أساسي من عوامل بقاء الإسلام وانتشاره ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ [البقرة : ٢٥١] ، وقال : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [الحج : ٤٠]

وما تقدم ليس ناشئا عن ضعف في براهين دين الإسلام ، ولا عن خلل في تشريعاته بحيث يكون "محتاجا" إلى القتال لينتشر ؛ لأن الاستجابة للحق ليست متوقفة على وضوح البرهان دائما ، بل قد يكون البرهان واضحا ، والحجة قوية ، ولكن تحول بين الناس وبين الاستجابة للحق عوائق وحواجز ، وعندها لا بد من التعامل القائم على الأخذ بالأسباب مع تلك العوائق والحواجز .

وبالجملة فتلك العوائق ترجع إلى أمرين :

الأول : الحرص على الدنيا ، من جاه أو رئاسة أو مال .

والثاني : التعصب للأفكار أو الأديان الباطلة .

ولأجل مثل هذه الأسباب فإن أهل الباطل مستعدون لخوض الحروب ، لإبعاد ما يبعدهم عن مصالحهم أو عن ما وجدوا عليه آباءهم من باطل . . ويُقْدمون في سبيل ذلك أيضا على منع الناس من إظهار الإسلام أو ممارسة شعائره بشكل كامل ، وقد يصل الأمر إلى الاضطهاد والقتل والتعذيب . . وهنا يأتي دور جهاد الطلب في

نشر دين الإسلام ، وذلك بإزالة هذه العوائق التي تحول بين الناس وبين الحق .

ولا يقتصر الأمر في جهاد الطلب على رفع الظلم المتعلق بالدين ، بل إذا وقع على المسلمين في غير بلاد المسلمين ظلم لأي سبب دنيوي ، فإن لدولة المسلمين أن تدافع عنهم وترفع الظلم عنهم من خلال الجهاد ، بل قد يصل جمال هذا التشريع إلى خوص المعارك لأجل رفع الظلم عن غير المسلمين .

ولا يقتصر الأمر على ما تقدم من مصالح تترتب علي تشريع جهاد الطلب . . فتحرير الأسرى ، والحفاظ على هيبة دولة المسلمين ، والتوسع الذي تفرضه طبيعة العلاقات بين الدول ، وتأديب العدو البعيد بغيره . . وغيرها من المصالح كلها مترتبة على تشريع جهاد الطلب .

إن جهاد الطلب يرفع دولة المسلمين من كونها دولة تابعة لغيرها ، إلى مستوى قيادة العالم . . دولة قوية ، تحرص على نشر مبادئها الصالحة ، وتدافع عن المظلومين ، ولا تسمح بمس هيبتها . . تلك هي القيادة التي يحتاجها العالم ليصلح حاله ، ويسود الحق والعدل في أرجائه . . وتأمل كيف جمع الله تعالى بين تمكين الصالحين في الأرض وبين نشر الرحمة في العالم : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ

بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء : ١٠٥-١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة : ١٤٣] .

ما الفرق بين الجهاد وبين الغزو عند الأمم الأخرى؟

هذا السؤال من أشهر الأسئلة المتعلقة بالجهاد ، ويستخدمه بعض الناس عادة لإثارة الشبهات حول الجهاد . . ومع أن فهم طبيعة الجهاد في الإسلام كاف في رد هذه الشبهة ، إلا أننا نزيد الأمر هنا بيانا فنقول : يظهر التفريق بين الجهاد في الإسلام وبين الغزو عند الأمم الأخرى من خلال أمرين أساسيين :

الأمر الأول : من خلال الدافع للجهاد ، والغاية منه .

الثاني : من خلال معرفة التشريعات العملية العادلة في الجهاد .

أما ما يتعلق بالدافع للجهاد والغاية منه ، فإنه يتبين من خلال أمور ، منها :

أولا : الدافع الذي يدفع المسلمين إلى الجهاد بشكل أساسي هو دين الإسلام ، فهم يجاهدون إما للدفاع عنه ، أو نشره بين الناس ، وإزالة العوائق التي تحول بين الإسلام وبين الناس ، وكذلك لرفع الظلم عن المستضعفين .

وهذا مؤسس على أساس مهم ، لا بد من أن يكون مستحضرا عند المسلم ، وهو أن دين الإسلام هو الدين الحق ، وأن غيره من

الأديان والأفكار باطل ، فإذا لم يكن هذا الأساس موجودا فقد يحدث الإشكال ، من جهة التسوية بين الإسلام وبين غيره ، فيقول المستشكل : هم يقاتلون ، ونحن نقاتل ، أو يصف فتوحات المسلمين بأنها (احتلال) .

فالهدف والغاية من القتال هي التي تجعل القتال ممدوحا أو مذموما ، فإن كانت الغاية سامية ، وهي رفع راية الإسلام ، فالقتال ممدوح ، وإن كانت الغاية باطلة كنشر أفكار باطلة أو أديان باطلة ، أو بهدف الاستيلاء على أموال الناس . . فالقتال عندها يكون مذموما .

فالجهاد هدفه إعلاء كلمة الله ، وليس إعلاء كلمة حاكم أو شعب أو قومية أو إيديولوجية أرضية ، فكل هذه غايات ظلم ترتبط بعلو مخلوقين على بعض ، وغاية الجهاد غاية عدل والناس تحتها سواسية ما داموا يعلون هذه الغاية .

وأما غير المسلمين فإنهم إنما يتحركون إما لدين باطل ، أو مبدأ فكري بشري باطل .

ثانيا : أن المسلمين إنما يتحركون للجهاد لغايات شريفة ، كالدفاع عن الإسلام ، أو نشره بين الناس ، أو الدفاع عن المظلومين ، ولا يوجد في نصوص الشريعة أن الغاية من الجهاد هي تحصيل الغنائم ،

بل الغنائم أمر تابع ثانوي . . أما الغاية الكبرى فهي نصرة دين الإسلام ، ولذلك فإننا إذا تأملنا في النصوص التي تحث المسلمين على الجهاد فإننا نرى أنها تذكر إعلاء كلمة الله ، كما في قوله تعالى : ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة : ١٩٣] ، أو تذكر دفع شر الكفار ، كما في قوله تعالى : ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ ﴾ [النساء : ٨٤] ، وتذكر رفع الظلم عن المظلومين الضعفاء ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾ [النساء : ٧٥] .

أما غير المسلمين ، فمحرك القتال عندهم لا يخرج عن نشر فكر باطل ، أو تحصيل المال ، بل نهب ثروات الشعوب بشكل كامل .

ثالثا : الجهاد لا يستهدف قتل المخالف بل هدايته أو خضوعه لحكم الإسلام ، وهذا أحب من قتله لأنه يؤول لرحمته في الدنيا والآخرة ، فنظام الإسلام نظام عدل ورحمة ويقود إلى النجاة في الآخرة وكفى بها من رحمة .

وأما الأمر الثاني ، وهو التشريعات الإسلامية العادلة في موضوع الجهاد ، فالإسلام لم يجعل موضوع القتال وفتح البلاد راجعا إلى آراء الناس ، بل هناك تشريعات وأحكام تنظم موضوع القتال ، تحول بين المسلمين وبين الظلم والتخريب والفساد في البلاد التي يغزونها .

وهي أحكام كثيرة متعددة ، منها ما يتعلق بما قبل القتال ، ومنها ما يتعلق بحال القتال ، ومنها ما يتعلق بما بعد القتال .

فمن هذه الأحكام : عدم مقاتلة من لم تبلغه دعوة الإسلام ، والحث على تكرار الدعوة قبل القتال ، والنهي عن قتل غير المقاتلين ، والنهي عن تخريب ممتلكات الدول ، والأمر بالمعاملة الحسنة العادلة بعد النصر ، بل إن أهل البلاد المغزوة إذا أسلموا صاروا سواء مع سائر المسلمين ، فيستوي الغازي والمغزو تماما ، وهذا لا يوجد في أي نظام أرضى .

وغير ذلك من التشريعات التي غابت عن واقع الحروب في هذا الزمان بسبب ضعف المسلمين . . والذي ينظر في طبيعة الحروب التي تشنها الدول التي تزعم الحضارة في هذا الزمان ، يرى تجردها في كثير من الأحيان من هذه المعاني ، ونظرة سريعة على العالم الإسلامي تظهر هذا بجلاء .

وهذا أمر بدهي ، فعند غياب الدين الصحيح الذي يردع صاحبه عن ارتكاب المخالفات ، فإن القوانين وحدها لا تنفع ، فإذا كان هؤلاء الغربيون ينتهكون حرمة النفس والمال في بلادهم وفي حق أنفسهم عند غياب القانون لفترة قليلة ، فكيف سيكون تعاملهم مع غيرهم ، وفي ظل عدم وجود تعليمات حقيقية موضوعية عادلة .

فإذا تأمل الإنسان مثل هذه الأمور ، ظهر له أن وضع جهاد المسلمين على صعيد واحد مع القتال عند الأمم الأخرى ، هو دعوى باطلة غير مقبولة ، وكل ما يبنى عليها باطل وغير صحيح .

الأسرة

مركزية الأسرة في الإسلام

العِفّة

الشذوذ

هل ميز الإسلام بين الرجل والمرأة؟

الميراث

قوامة الرجل على المرأة

دور المرأة في المجتمع

الحجاب مشروعيته والحكمة منه ، وأهم الشبهات حوله

المحركات نحو الحجاب

حال المرأة بين العالم الإسلامي والعالم الغربي

مركزية الأسرة في الإسلام

تعد الأسرة الصالحة من أهم ما يميز هوية المجتمع المسلم عن غيره ، وبخاصة في هذا العصر الذي طغت فيه الثقافة الغربية ، والتي لا تهتم ببناء الأسرة الصالحة ، بل تزهد فيها ، وتحارب ما يضمن استقرارها .

لقد أسست النصوص الشرعية لهذا الدور المركزي للأسرة في المجتمع من خلال نصوص وتشريعات عدة ، ومن أهم هذه النصوص تلك النصوص التي تجعل الزواج وتكوين الأسرة أمرا مرتبطا بالفطرة البشرية ، كما في قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النحل : ٧٢] ، وقوله : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾ [فاطر : ١١] ، فتأمل هذه المكانة الرفيعة للأسرة إذ جعلها جزءا من الفطرة البشرية ، ولذلك جعلها من سنن أكرم الخلق عليه ، وهم أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ [الرعد : ٣٨] ، وقال ﷺ : «أما والله إني لأخشاكم لله

وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني» [أخرجه البخاري] .

ومن أهم الدلائل التي تؤكد مركزية دور الأسرة في المجتمع المسلم : التشريعات التي جعلتها الشريعة مرتبطة بالأسرة ، كإلزام الرجل بالنفقة عليها . . ضمن منظومة من الحقوق والواجبات التي تجعل رعاية أفراد الأسرة من مهام الأسرة ذاتها ، ويكون دور الدولة فيها دورا أقرب إلى "الدور الرقابي الإشرافي" .

ولأهمية هذا الدور للأسرة فإن الإسلام شرع من التشريعات مع يكفل وجود أسرة صالحة ، وذلك حتى تحقق الأهداف المنوطة بالأسرة ، ومن أهم هذه التشريعات :

أولا : الأمر بحسن اختيار الزوج والزوجة . . كما قال النبي ﷺ : «فاظفر بذات الدين» [أخرجه البخاري] ، وقال : «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه» [أخرجه الترمذي] .

ثانيا : الأمر بالاهتمام بالأولاد من الناحية الدينية والناحية المادية ، كما في قوله تعالى : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه : ١٣٢] ، ومن ذلك تلك الوصايا الأبوية العظيمة في سورة لقمان ، والتي تظهر جانبا عظيما من جوانب التربية ، وتدل بالضرورة على أهمية الاهتمام برعاية الأسرة . . وقد جاءت السنة

النبوية مؤكدة هذا المعنى في نصوص عدة ، منها قوله ﷺ : «الرجل راعٍ في أهله ومسؤولٌ عن رعيته ، والمرأةُ راعيةً في بيتِ زوجها ومسؤولةٌ عن رعيتها» [أخرجه البخاري ومسلم] .

ثالثا : الأمر ببر الوالدين ، كما في قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء : ٢٣] .

رابعا : إشاعة جو المحبة في الأسرة ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم : ٢١] ، وكما في قوله تعالى عن صفات عباده الصالحين : ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان : ٧٤] ، وتأمل كيف جعل النبي ﷺ معيار الخيرية على الصعيد الشخصي هو مدى خيرية الشخص لأهل بيته ، فقال ﷺ : «خيركم خير لأهله ، وأنا خيركم لأهلي» [أخرجه الترمذي وابن ماجه] .

خامسا : تشريع الصلاحيات التأديبية لرب الأسرة ، والتي تعالج الخلل الذي قد يطرأ على أحد أفراد الأسرة من الناحية الدينية ، كما في قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم : ٦] ، وقال ﷺ : «مُرُوا

أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عَشْر ، وفرقوا بينهم في المضاجع» [أخرجه أحمد وأبو داود] .

كما تعالج هذه التشريعات الخلل الذي يؤثر على استقرار الأسرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء : ٣٤] .

ووصول الصلاحيات التأديبية إلى الضرب التأديبي هو أمر استثنائي قليل . . فلا يوجد عاقل يماري في أن تطبيق التشريعات المتعلقة بالأسرة يحول دون الوصول إلى حالة يحتاج فيها إلى هذا الضرب التأديبي . . مع التنبيه إلى أن أكثر صور الضرب التي نراها حولنا ليس لها علاقة بهذا الضرب ، لا من حيث الطريقة ، ولا من حيث الدافع . . بل أكثرها ينطلق من سوء خلق ، وبعد عن تطبيق التشريعات الإسلامية .

إن هذه التشريعات وغيرها تكوّن أسرة صالحة . . أسرة تؤتي ثمارا عظيمة . . أسرة تظهر هوية المجتمع المسلم . . ومن أهم هذه الثمار التي تترتب على وجود الأسرة الصالحة :

أولا : نشر العفة في المجتمع ؛ فالعفة من أهم مكونات الشخصية المسلمة ، والمجتمع المسلم . . فهو مجتمع بعيد عن الخنا ، ينشر العفة ، ويأمر بالزواج وستر العورات وغض البصر ، ويجرّم الزنا والفجور ، ويشرع العقوبات التي تعالج الخلل الذي يطرأ بعد تلك التشريعات .

ثانيا : حماية المرأة ؛ فالمرأة في ظل الأسرة الصالحة تكون عزيزة كريمة ، تعامل بالمعاملة الكريمة الحسنة ، ولا تكلف بما يخرج عن طاقتها عادة كالنفقات والعمل ، وبالتالي فهي بعيدة عن مواضع المهانة والأذى .

ثالثا : تكثير النسل ؛ وهو من أهم مقاصد الزواج ، ومن أهم ما يضمن قوة المجتمع واستقرار مؤسساته .

رابعا : إنتاج الأجيال الواعدة ؛ فمن يتأمل ذلك الجو الذي توفره الأسرة الصالحة يعلم أنه كفيل بنشأة مستقرة للأطفال ، لا يقتصر الأمر فيها على نفسية مطمئنة متزنة ، بل يفجر ما فيها من مواهب وطاقات .

خامسا : محاربة الجريمة ؛ فإن عدم النشأة الصالحة هي البذرة المغذية للجريمة ، وهي الوقود الذي يغذي تلك النار التي يصل أذاها إلى المجتمع كله .

... وبعد فإن من يتأمل في مثل هذه التشريعات يعلم يقينا أن الإسلام أولى للأسرة اهتماما بالغا ، وجعلها ركيزة من ركائز المجتمع . . ثم إن العاقل إذا قارن ذلك بالثقافة الغربية يرى تباينا واضحا في النظرة إلى الأسرة ؛ فالثقافة الغربية لا تهتم بالأسرة ، بل تزهد فيها وتجعل دورها هامشيا . . ويظهر هذا من خلال أمور عدة ، منها : التزهيد في الزواج ، ونشر الفجور بشتى أنواعه ، ومنها : التشريعات التي تفكك الأسرة داخليا كالتشريعات التي نرها تحت عنوان "حماية الأسرة" ، ومنها : عدم وجود كيان للأسرة بحيث تقسم فيه الحقوق والواجبات ، بل الكل في الأسرة سواء ، فلا رأس لها ، ولا حافظ لاستقرارها . . أفراد الأسرة فيها غرباء عن بعضهم ، لا روابط بينهم . . وكأن مناسبة عرضية جمعتهم في مكان ما ، ثم مضى كل منهم إلى سبيله!

العِفّة

الحديث حول العِفّة هنا مرتبط بغريزة الميل المتبادل بين كل من الرجل والمرأة ؛ والمراد بالعفة في هذا السياق : عدم وجود علاقة محرمة بين الرجل والمرأة ، ومنع الطرق المؤدية إلى ذلك .

إن الناظر في نصوص الشريعة يظهر له بشكل جلي أن العفة قيمة أخلاقية أساسية في دين الإسلام ، وفي المجتمع المسلم .

إن العفة التي يأمر بها الإسلام ليست رهبانية داعية إلى اجتثاث الغريزة الإنسانية ؛ بل هي قيمة أخلاقية ترتبط بمجموعة من الأحكام ، وتأمر المسلم بتوجيه غريزته إلى ما أحل الله تعالى له . . هي قيمة أخلاقية تظهر فيها وسطية الإسلام ؛ فهي لا تأمر باجتثاث الشهوة ، ولكنها في المقابل تسمو بالإنسان عن أن يحمل عقلا شهوانيا . . ذلك العقل الشهواني الذي يجعل الإنسان لاهثا وراء شهوته . . يحرص على إثارة الغرائز بكل الوسائل ، ثم يحارب الزواج ، ثم يعمل على إشباع شهوته من الحرام ، ثم يصل به الحال إلى التفنن في اختراع طرق ترضي ذلك السعار ، ثم يجعل ذلك كله من أهم معالم الحضارة ، ثم يعمل على فرض هذه الحال على الناس والأمم من خلال القوانين والاتفاقيات الدولية!

ومن الأدلة التي تبين أن العفة قيمة أخلاقية كبرى في المجتمع المسلم :

أولا : النصوص الشرعية التي تحث على الزواج وتكوين الأسرة ؛ فالزواج هو السبيل الشرعي الذي توجه إليه هذه الغريزة . . وفي ذلك يقوله الله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ ﴾ [النساء : ٢٥] ، ويقول النبي ﷺ :«يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ؛ فإنه له وجاء» [أخرجه البخاري ومسلم] .

ثانيا : النصوص التي تنهى عن الفواحش وتنفر النفس منها ، كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء : ٣٢] ، وكقوله تعالى : ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [النور : ٣] .

بل إن الشريعة نهت عن أفعال قد تؤدي إلى الفواحش ، إحاطة لقيمة العفة بسياج يحميها ويحفظها . . ومن هذه الأحكام : أمر كل من الرجل والمرأة بغض البصر ، والنهي عن الخلوة والاختلاط المحرم .

ثالثا : تنظيم أحوال الأسرة بما يحافظ عليها ؛ وذلك من خلال أحكام الزواج ، والطلاق ، والأمر بحسن المعاملة ، والأمر بحل الخلافات الزوجية بالمعروف ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء : ١٩] .

رابعا : القصص القرآني الذي يجعل أصحاب العفة قدوة للإنسان المسلم ؛ فالقرآن الكريم حكى لنا مواقف تظهر فيها العفة ، وحبب هذه المواقف إلينا ؛ كقصة يوسف عليه السلام ، وحسبنا أن نتأمل في ذلك قوله تعالى عن يوسف : ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ﴾ [يوسف : ٣٣] ، وقوله : ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف : ٢٤] .

وكقوله تعالى عن أحدى ابنتي ذلك الرجل الصالح في قصة موسى عليه السلام : ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص : ٢٥] .

خامسا : توعد مروجي الفواحش بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور : ١٩] .

سادسا : تشريع عقوبات الزنا وفعل قوم لوط ؛ فوجود العقوبة دليل على أن هذه الأفعال يعدها الإسلام من الأفعال الخطيرة التي تهتك عفة المجتمع المسلم .

. . وفضلا عن إصلاح العفة للنفس البشرية ، فقد ارتبطت هذه القيمة بمقصد عظيم من مقاصد التشريع الإسلامي ؛ ألا وهو حفظ النسل ؛ فإن حفظ نسل البشرية وبقاء ما تقوم به المجتمعات من الموارد البشرية مرتبط بشكل أساسي بالعفة . . إن الإنسان إذا تُرك لشهوته يصرفها كيف يشاء ، وبأقل المسؤوليات ، فما الذي سيدعوه إلى الارتباط من خلال الزواج ، وتحمل مسؤولية الأطفال وأعبائهم؟

إن أي ناظر إلى تلك المجتمعات التي تزهد في الزواج ، وتدعو إلى الخنا والفجور ، لن يجد مناصا من الربط بين هذه الحالة وبين حالة تراجع نسل تلك المجتمعات ، إلى حد "استعانتهم" بالأمم الأخرى في تشغيل مؤسسات تلك الدول .

بل إننا لا نبالغ إذا ربطنا قيمة العفة بحفظ العقل ؛ فالذي ينظر إلى السعار الجنسي المنتشر في الغرب يعلم يقينا أن الأمر انتقل من كونه قضاء شهوة إلى حالة فكرية غير متزنة . . فما هو هذا الفكر الذي يجعل قضاء الشهوة مع الجنس الواحد أو الحيوانات وربما الجمادات حقا من حقوق الإنسان؟! وما هو هذا الفكر الذي يحارب كل دراسة علمية تخالف ذلك السعار؟! وما هو هذا الفكر الذي يفرض العقوبات على الأمم الأخرى إذا تمسكت بعفتها؟! . . لعلك تجد الإجابة إذا تأملت قوله تعالى عن قوم لوط : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر : ٧٢] .

الشذوذ

الحديث عن الشذوذ الجنسي تابع للحديث عن العفة ؛ فتحريم الشذوذ الجنسي داخل في التشريعات التي تحافظ على عفة المجتمع . . إلا أن هناك حاجة لإفراده بالحديث لما نراه حولنا من حالات فكرية وتشريعية تتعلق به .

إن تحريم الشذوذ الجنسي من الأمور المسلّمة في دين الإسلام ، ويمكن بيان ذلك من خلال أمور :

الأمر الأول : مخالفة الشذوذ للفطرة السليمة ؛ فما من فطرة سليمة يمكن أن تتقبل هذا الفعل المشين .

وحسبنا في ذلك أن ننظر في قصة قوم لوط ، والتي فيها أن قوم لوط استحقوا أن يعذبهم الله تعالى في الدنيا قبل الآخرة ، عقوبة لهم على كفرهم وإتيانهم الذكور . . لقد أُخِذوا بالصيحة ، ثم قُلبت قريتهم رأسا على عقب ، ثم أُرسلت عليهم حجارة من سجيل ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر : ٧٣-٧٤] . . نعم ، هذه كانت عقوبة من قلب فطرته السليمة ، فناء . . وطمسا لآثارهم ونَتَنِهم!

وتأمل كيف أن لوطا عليه السلام اكتفى بوصف فعلهم ذاك في سياق نهيهم عنه ، فقال : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف : ٨٠-٨١] . . فإنه من المعلوم أنهم يأتون الذكور ، فكان في إعادة وصف أفعالهم في سياق النهي عنها إشارة إلى أن هذا الفعل مرفوض عند أي عقل وفطرة سليمة . . ولكن الانحراف كان قد وصل بهم إلى حال يتعلقون فيها بتلك الأفعال . . لقد اختلطت هذه الفاحشة بكيانهم . . ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الحجر : ٦٧] . . ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود : ٧٩] .

إن جريمة قوم لوط كانت مركبة ؛ ذلك لأنهم لم يكتفوا بفعل تلك الفاحشة ، بل إن قلوبهم قست ، وعقولهم ضلت ، وفطرتهم انحرفت إلى حد أن صار هذا الفعل حالة فكرية ، بل معيارا يقيمون الناس من خلاله ، ويتخذون المواقف على أساسه ، ويعاقبون من يخالفه وينهاهم عنه . . انتظر لم نتحدث عن أوروبا بعد! ﴿فَمَا كَانَ

جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ [النمل : ٥٦] .

الأمر الثاني : أن الشذوذ من عوامل هدم الأسرة في المجتمع ، ويظهر هذا من وجوه :

١- أن الإنجاب لا يتحقق إلا بوجود الذكر والأنثى ؛ والدافع الأكبر لكل من الرجل والمرأة للاهتمام بالأطفال هو كون ذلك الرجل أبا ، وكون تلك المرأة أمّا ، والتضحيات العظيمة التي يقدمها كل من الأب والأم ، والتي نراها في حياتنا . . هذه التضحيات الدافع الأساسي فيها هو عاطفة الأبوة والأمومة ، وبذهاب هذه العاطفة يذهب أهم عامل من عوامل الاهتمام بالأطفال ، والحفاظ على الأسرة .

٢- أن طبيعة كل من الرجل والمرأة في الأسرة تشكلان الحاضنة المتكاملة التي تلزم لتربية الأطفال ، وتكوين أسرة متماسكة ؛ فالطفل يحتاج إلى حنان المرأة ورقة قلبها ، ووفور عاطفتها ، كما يحتاج إلى حزم الرجل ، وحكمته في قراراته .

ومن خلال هذين الأمرين يتم حماية الطفل داخل الأسرة ، وينشأ نشأة نفسية ومادية صحيحة .

٣- أن الأسرة فيها تحمل مسؤولية لكل من الرجل والمرأة ، والإنسان في الغالب يفر من تحمل المسؤوليات ؛ ويشكل الميل الجنسي والعاطفي بين الرجل والمرأة عاملا أساسيا في إقدام كل منهما على الزواج ، وبالتالي تحمل مسؤولية الإنجاب والأطفال وتكوين الأسرة .

فإذا صرّف كل من الرجل والمرأة شهوتهما من خلال الشذوذ أو الزنا ، كان هذا سببا هاما في عزوفهما عن الزواج وتكوين الأسرة .

الأمر الثالث : أن الشذوذ يحارب مبدأ تكاثر البشر ، وبقائهم قادرين على إدارة حياتهم .

وهو من هذه الناحية يلتقي مع العلاقة غير المشروعة بين الرجل والمرأة ، فكل من الزنا والشذوذ يشكلان طريقا غير مشروع لتصريف الشهوة الموجودة في الإنسان كما تقدم .

لقد أعادت الثقافة الغربية إحياء هذه المعصية الكبيرة الخطيرة على المجتمعات البشرية . . ومن يعرف طبيعة الفكر الغربي المتقلب لا يستغرب ذلك . . فالغرب يتعامل مع الأفكار والوعي والعقائد كما يتعامل مع صيحات الموضة ، فكل حين نرى صرعة فكرية تشيع بين فئام من الأوروبيين ، في تأكيد لحالة الضياع الفكري التي تعيشها المجتمعات الغربية . . إنك إذا مشيت في بعض شوارع أوروبا الآن فقد تكون صاحب "نصيب" في أن ترى إنسانا يلبس "ملابس"

كلب ، ويسير على أربع ، ويجره إنسان آخر . . في مظهر من مظاهر "الرفاهية الفكرية" أو "الحرية الشعورية" التي تشيع في الغرب ، ثم لا تلبث أن تسمع بجمعيات ومؤسسات تعمل على "دعم" تلك الكلاب البشرية . . فمن حق الإنسان أن ذلك الشعور الحيواني الذي يشعر به!

في مثل هذه الأجواء الفكرية ظهرت في الغرب فكرة الشذوذ كمَعْلم من معالم الفكر الغربي المتحضر ، وأعادوا حالة قوم لوط ولكن بصورة أكثر بشاعة . . ويمكن تلخيص ذلك في أمور :

أولا : إدخال الإباحية الجنسية تحت مفهوم الحرية الشخصية ؛ فمفهوم "الحرية" مقدس لدى الغرب ؛ ومن ضمن ذلك الحرية في ممارسة العلاقات المحرمة ، فليس ثمة قيود دينية على ذلك . . ومن ضمن ذلك الشذوذ الجنسي .

وبذلك انتقل هذا الفعل من كونه معصية إلى كونه حقا من حقوق الإنسان .

ثانيا : إشاعة الشذوذ ؛ وهذا مما ترتب على إدخال الشذوذ في حقوق الإنسان . . وبناء على ذلك فقد وضعت القوانين التي "تحمي" الشواذ ، وتسمح لهم بنشر أفعالهم والدعوة إليها . . بل صار الأمر مصدرا ماليا أساسيا لأصحاب رؤوس الأموال .

وعملوا على إدخال هذه المفاهيم إلى المناهج الدراسية في المدارس والجامعات ، بل إلى رياض الأطفال في بعض الدول .

ولم يكتف الغرب بذلك في بلادهم ، بل عملوا على نشر ذلك في العالم كله ، من خلال صياغة اتفاقيات دولة تفرض ذلك على الدول الأخرى ، وتتحكم في القوانين الداخلية لتلك الدول ، لا سيما الدول الضعيفة أو الفاسدة .

ثالثا : إعادة تسمية الشذوذ الجنسي ؛ فمصطلح الشذوذ الجنسي بات من المصطلحات ممنوعة الاستخدام دوليا ، حتى في وسائل التواصل الاجتماعي .

ومن أهم المفاهيم التي أسسها الفكر الغربي في هذا السياق : مفهوم النوع الاجتماعي أو (الجندر) ، والذي يشمل الميول الجنسية للإنسان ؛ فأصحاب هذا المصطلح يفرقون بين الجنس وبين النوع الاجتماعي ؛ فالجنس هو ما يُخلق عليه كل من الذكر والأنثى من الناحية الفسيولوجية ، وأما النوع الاجتماعي فمن الأمور التي تتعلق به : الميول الجنسية ، وهذه الميول لا ترتبط بالجنس ؛ فقد يكون جنس الإنسان ذكرا ولكن ميوله للذكور ، وقد يكون جنس الإنسان أنثى ولكن ميلها للإناث ، بل قد يكون ميل الإنسان إلى غير بني الإنسان ، فيميل إلى حيوان من الحيوانات .

وفي هذا السياق أشاع الفكر الغربي مصطلح (المثلية) بدلا من الشذوذ ؛ في إشارة إلى أن ميول الإنسان إلى مثله في الجنس .

رابعا : التضليل العلمي ؛ حيث استخدم الغرب العلمَ التجريبي في سبيل إظهار الشذوذ على أنه ممارسة طبيعية ، فهي ليست مرضا ، ولا فعلا خاطئا . . وحاولوا تدعيم ذلك دراسات غير نزيهة ، تقوم على الإرهاب الفكري والضغط المالي على الباحثين .

ومن الجدير هنا الإشارة إلى بطلان كون الشذوذ أمرا مقبولا بحجة تسميته "ميلا طبيعيا" . . فهذه فكرة باطلة ، ويمكن بيان ذلك من خلال أمور :

١- من الخطأ الكبير التعامل ببراءة مع كل ما يدعى دراسة علمية في الغرب ؛ فالغرب وإن كان يحرص على الشفافية والنزاهة في جانب من البحث العلمي التجريبي ، فإن هذه الحال لا تبقى إذا تعلق الأمر بمصلحة مالية ، أو بأمر يتعارض مع الفكر الغربي ؛ ففي هذه الحالات يمكن أن تحرف نتائج البحث العلمي عندهم بدون تردد .

ولذلك أمثلة عدة ، كالدراسات التي تهون من أثر السكَّر على الصحة إرضاء لأصحاب رؤوس الأموال ، وأظهر من ذلك الدراسات التي تنتصر لنظرية داروين بسبب كونها فكرة يمكن أن توظف لإنكار وجود خالق . . وفي هذا يمكن للإنسان أن يقف على عدد من

الدراسات والأفلام الوثائقية التي تبين كيف تفرض بعض مراكز الدراسات مثل تلك النتائج على الباحثين ، وتعاقب من يخالف ذلك .

وفكرة كون الشذوذ أمرا "طبيعيا" من أظهر الأمثلة على ذلك أيضا .

٢- لو سلمنا جدلا بأن بعض الناس فيهم ميل "فطري" إلى أمثالهم في الجنس . . فهل كل ميل يجده الإنسان في نفسه يكون شيئا صحيحا؟ أليس في النفس البشرية صفات ذميمة يجب على الإنسان تهذيبها؟ ألا يطرأ على الفكر أو الفطرة البشرية أحيانا صور من الخلل يجب إصلاحها؟ ألا يفكر العقلاء بهذه الطريقة . . أم أنهم يقولون : كل ميل تجده في نفسك فهو شيء صحيح ، وهو حق من حقوق الإنسان؟!

ليس كل ما تميل إليه النفس البشرية يكون أمرا طبيعا ، يسوغ فعله ؛ فالإنسان المتدين بالدين الصحيح يجب عليه أن يحكم نفسه به ، فليس كل ما مالت إليه نفسه ، أو اشتهاه يكون أمرا صحيحا ، بل الواجب عليه أن يزن تصرفاته وميوله بميزان الدين الصحيح ، فما وافقه فهو صحيح ، وما خالفه فهو مردود ، وبالتالي فيجب عليه أن يتعامل مع الشذوذ على أنه معصية ، فإن كان واقعا فيه أقلع عنه وتاب منه .

وكذلك فإن عقلاء البشر لا يعدون كل أمر تميل إليه النفس صحيحا سائغا فعله . . فلنتخيل معا أن شخصا تميل نفسه إلى السرقة ، وتعود على السرقة منذ صغره ، وتعلق قلبه بها ، فلما كبر صار سارقا محترفا ، ثم اجتمع مع مجموعة من السراق ، وأنشؤوا مجموعة للدفاع عن حقوق السراق ، وجعلوا "ميلهم النفسي" للسرقة مسوغا للسرقة ، فهل يكون هذا مقبولا في عقل أو دين؟!

إذن فالميل النفسي ليس معيارا توزن به صحة التصرفات ، لا عند أهل الأديان ولا عند غيرهم ، ولو فتح هذا الباب لكان بابا للفوضى ، وبابا لتسويغ مختلف أنواع الإجرام .

وبناء على ذلك فإن الأصل أن نتعامل مع هذا الميل على أنه خطأ ، والواجب أن يجاهد المبتلى به نفسه للتخلص منه ، وأن لا يقدم على ممارسة الشذوذ ، وإذا احتاج إلى علاج طبي أو نفسي لجأ إلى ذلك .

٣- الشذوذ ليس مجرد "ميل نفسي" طارئ على الفطرة ، بل هو أكثر من ذلك ، فهو :

أ- ممارسة عملية جنسية شاذة ، ينشأ عنها مفاسد اجتماعية ، ومضار نفسية وصحية ، وقبل ذلك هو معصية لله تعالى .

ب- كما أنه صار اتجاها فكريا ، يسوغ الشذوذ ، ويشرعنه ، بل قد يتخذ طريقة لمحاربة الأديان والفطر السليمة .

هل ميز الإسلام بين الرجل والمرأة؟

هل ميز الإسلام بين الرجل والمرأة؟ . . سؤال نسمعه في كثير من الأحيان ، وبخاصة عند وجود جدل حول بعض المسائل الشرعية .

والحق أن هذا السؤال بات فزاعة يستخدمها بعض دعاة إفساد المرأة ليرهبوا المخالف لهم فكريا ؛ فإنهم كثيرا ما يوردونه لحسم الجدل في هذا النوع من القضايا ، مع أنه يحتوي على قدر كبير من الضبابية .

وقبل أن نجيب على هذا السؤال ننبّه إلى أن كلمة (التمييز) قد يُحمّلها بعض الناس معاني سلبية ؛ بحيث يكون التمييز مشتملا على معاني الظلم أو الانتقاص من الحق أو الازدراء . . وهذه كلها معاني باطلة . . واستخدام كلمة (التمييز) في هذه المقالات هو فقط بمعنى : عدم المساواة في بعض الأمور .

وحتى نجلي هذه المسألة فنحن بحاجة إلى أن نجيب على سؤالين : السؤال الأول : هل هناك تلازم بين التمييز والظلم؟ أو : هل العدل دائما يكون في المساواة؟

السؤال الثاني : هل المرأة والرجل متماثلان من الناحية الخَلْقية؟

وحتى نجيب عن السؤال الأول فلا بد من بيان مفهوم كل من العدل ، والظلم ، والمساواة .

الفرق ظاهر بين الظلم من ناحية وبين العدل والمساواة من ناحية أخرى ؛ فالظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ، وحرمان صاحب الحق من حقه .

ولكن هل العدل والمساواة شيء واحد؟ أم أن بينهما فرقا؟

العدل هو وضع كل شيء في مكانه المناسب له ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وأما المساواة فهي التسوية التامة في كل الأحوال ، حتى لو كان بإعطاء حق لغير صاحبه ، وحتى لو كان بوضع شيء في غير موضعه المناسب له .

وعليه فالعدل والمساواة قد يجتمعان وقد يفترقان في بعض الأحيان ، بمعنى أن المساواة تكون عدلا في كثير من الأحيان ، ولكن قد يكون من الظلم التسوية في بعض الأحوال .

وهذا أصل عقلي فطري لا يخالف فيه عاقل ، ولا يوجد إنسان أو جماعة أو دولة أو مؤسسة إلا وهي عاملة بهذا الأمر .

فمثلا إذا أعلنت شركة ما عن وظيفة مدير ، واشترطت شهادة علمية معينة لذلك ، ثم جاء شخص لا يحمل هذه الشهادة وقال : أنا يحق لي أن آخذ هذه الوظيفة لأني إنسان ، والذي يحمل الشهادة إنسان ، ويجب عليكم أن تسووا بيننا .

فعندها سيكون جواب أي عاقل : إن المساواة هنا ليست عدلا ، بل هي ظلم وفساد . . ليس لأنك لست إنسانا ، بل لأن هذه الوظيفة تحتاج لمؤهل معين ، وأنت لا تحمله .

إذا علمنا هذا فيمكننا أن نخرج بأصل مهم وهو : أن العدل هو وضع كل شيء في موضعه المناسب ، ويكون في كثير من الأحيان من خلال المساواة ، ولكن ليس دائما ، فعدم المساواة في بعض الأحيان يكون هو العدل .

فإن قال قائل : أنتم بهذا تفتحون الباب للظلمة الذين يريدون أن يحرموا الناس من حقوقهم ، وذلك بأن يفرقوا بين الأمور بطريقة غير صحيحة ، فيتوصّلون بذلك إلى الظلم .

فالجواب : أن الخلل هنا ليس في الأصل الذي أصلناه ، وإنما في التفريق بين الأشياء بفروق غير صحيحة ، فنحن نرد على الظالم هنا ببيان أن الفرق الذي اعتمد عليه غير صحيح ، وغير مؤثر ؛ ففي مثالنا السابق نقول : لو أن الشركة اختارت واحدا من حملة الشهادة نفسها بحجة أنه ابن فلان المسؤول ، فهذا ظلم لأن هذا الفرق غير مؤثر ، وغير صحيح هنا ، وليس لأن العدل هو في المساواة دائما .

واستغلال الظلمة لأصل صحيح لا يجعله فاسدا ، فإننا نحكم على فعل الظالم بالفساد ، ولكن بدون أن ننكر الأصل الصحيح الذي استخدمه بشكل غير صحيح .

وهل من المعقول أن نترك الإصلاح -مثلا- لأن كثيرا من الفاسدين يرفعونه كشعار ، ثم يمارسون تحته الفساد؟

السؤال الثاني : هل المرأة والرجل متماثلان من الناحية الخَلْقية؟

أي : هل هما متساويان من ناحية الخِلقة؟ أم أن قوة الرجل -مثلا- أكثر من قوة المرأة عادة؟

هل هما متماثلان من ناحية تحمل المشاق وضغوط الحياة؟

هل هما متماثلان من ناحية غلبة العاطفة على التصرفات؟

هذه مسألة وجودية عقلية فـــــــــطرية محسوسة ، ولا يوجد عاقل يخالف في أنهما غير متماثلين .

فإن قيل : هناك نساء أقوى بدنيا من بعض الرجال ، وهناك نساء لا تغلب عليهن العاطفة .

فالجواب : أن هذا قليل ؛ ونحن ننظر إلى الأصل وطبيعة الخلق ، لا إلى القليل ، ولا نبني أحكامنا عليه .

بل إن قلة نسبة النساء بالوصف المذكور هي مما يقوي ما ذكرناه ، والذي ينظر في الواقع قديما وحديثا يرى ذلك واضحا ، حتى في الدول الغربية .

فإن قيل : هذا بسبب الظروف الاجتماعية التي عاشتها المرأة قديما ، وهي في طريقها إلى أن تتغير حالها وتكون كالرجل تماما .

فالجواب من وجوه :

أولا : لو سلمنا بإمكان حدوث هذا ، فإنه وضع خاطئ للمجتمع ؛ ونحن نشاهد أن لمحاولات القفز على تلك الفطرة مفاسدَ عظمية ، منظورةٍ وقادمة ، منها ما يتعلق بإلحاق الظلم بالأطفال وحرمانهم ، ومنها ما يتعلق بتفكك الأسرة التي هي نواة المجتمع .

فالوضع الذي يسعى إليه بعض الناس هو وضع خاطئ مخالف للفطرة والعقل ، يبدأ برفع شعار التسوية المطلقة ، وينتهي باختراع بعض الأدوات التي تمكن الرجل من إرضاع الأطفال ، أو التي تجعله يحس بألم الولادة مع زوجته ، ونحو ذلك من ضروب الهوس ومخالفة الفطرة التي ظهرت في الغرب .

ثانيا : أن هذا الاعتراض فيه إحالة على مجهول ، فغاية ما فيه أن صاحبه يقول : انتظروا عشرات أو مئات السنين ، ربما يتغير الحال!

هذا المجهول ليس علما ، وليس شيئا يمكن التمسك به وبناء الحياة والقوانين عليه ، وما أشبهه ببعض عقائد مشركي قريش التي كانت تبنى على توقع وظن ، والتي كان من أهم أوجه ردها في كتاب الله تعالى : أنها ظنون . . وكفى ، والظن لا يغني من الحق شيئا .

وهل من التصرف الموضوعي العاقل : أن يترك الإنسان الواقع الذي يعلمه يقينا ، ثم يتمسك بالمجهول والمظنون .

ثالثا : ثم إن الظروف والثقافة مهما تغيرت فطبيعة المرأة لا تتغير ، لأنها شيء راجع إلى تكوينها وخلقتها ؛ فهل التغير في الثقافة سينتج لنا نساء يدانين الرجال في القوة ، أو نساء لا تغلب عليهن العاطفة؟!

وبعد . . فإذا استقر عندنا هذان الأصلان : أن العدل ليس في المساواة دائما ، وأن الرجل والمرأة ليسا متماثلين تمام التماثل ، فإنه يمكننا أن نجيب على سؤال : هل ميز الإسلام بين الرجل والمرأة؟

فنقول : لا نجيب عن هذا السؤال بنعم ، ولا بلا .

بل إن الإسلام سوى بين الرجل والمرأة في أكثر الأحوال ، ولم يسو بينهما في أحوال أخرى بناء على طبيعة كلّ من الرجل والمرأة ، وبناء على طبيعة التشريع المعين ؛ فأحيانا أعطى الرجل ما لم يعط المرأة ، وأحيانا أعطى المرأة ما لم يعط الرجل .

وتفصيل هذا يطول ، وسنضرب له أمثلة فيما يأتي إن شاء الله ، ولكن لنعلم يقينا هنا أن البشر مهما حاولوا الاجتهاد فإنهم لن يصلوا إلى تشريعات كاملة ، فالله سبحانه هو العليم الخبير ، الذي لا يخفى على علمه شيء ، ولا تخضع تشريعاته للهوى والنقص ، وصدق الله إذ يقول : ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة : ٥٠] .

الميراث

تكلمنا في المقال السابق عن أصل عدم المساواة بين الرجل والمرأة مساواة تامة . . والمراد هنا التمثيل باختصارٍ للخلاصة التي ذكرناها بذكر بعض الأحكام الشرعية التي لم تسوِ فيها الشريعة بين الرجل والمرأة ، مع بيان الحكمة من ذلك .

وقبل أن نذكُر بعض الأمثلة لا بد أن نذكّر بالأساس الذي يقوم عليه الجواب ، وهو أن المسلم ينطلق من أصل التسليم لنصوص الشريعة ، ويقبل كل ما جاءت به ، ثم يحاول معرفة الحكمة ، فإذا ظهرت له ازداد إيمانا ، وإذا لم تظهر له بقي على أصل التسليم .

فمن هذه المسائل : أخذ المرأة على النصف من الرجل في الميراث ، في بعض الحالات .

فهذه المسألة من المسائل التي نص عليها كتاب الله تعالى وأجمع عليها المسلمون . . وقد اعترض أصحاب الفكر الغربي على هذا الحكم بحجة أن فيه "تمييزا" ضد المرأة .

والجواب يكون من خلال أمرين :

الأمر الأول : بيان أن عدم المساواة التامة ليس ظلما دائما ، كما فصلناه فيما سبق .

الأمر الثاني : بيان بعض الحِكم من عدم المساواة في بعض الأحكام .

فمن هذه الحِكَم : أن الإسلام أوجب على الرجل من الالتزامات المالية ما لم يوجبه على المرأة ، فليس من العدل المساواة بينهما في الميراث دائما .

وبيان ذلك : أن الإسلام أوجب على الرجل المهر ، والنفقة على الزوجة والأولاد (كالطعام والملبس والسكن) ، وما يترتب على الطلاق ، وأوجب عليه النفقة على أبيه وأمه إذا احتاجا .

وفي المقابل لم يوجب على المرأة شيئا من ذلك ، بل هي من يأخذ المال من خلال النفقة ، ولم يوجب الإسلام على المرأة أن تنفق على زوجها وأولادها حتى لو كانت غنية وزوجها فقير .

فهل من العدل هنا المساواة بين الرجل والمرأة؟!

فإن قيل : المرأة الآن تعمل وتنفق على البيت كذلك ، فيجب المساواة .

فالجواب من وجوه :

الأول : أنها وإن كانت تعمل فالإسلام لا يوجب عليها النفقة على البيت .

الثاني : أن هناك نساء لا يعملن ، فما هو الحل؟ هل نقول : التي تعمل نسويها بالرجل ، والتي لا تعمل لا نسويها؟ وهل التي تأخذ

راتبا قليلا نعاملها كالتي تأخذ راتبا كبيرا؟ . . امرأة لا تريد أن تعمل ، هل نلزمها بالعمل والنفقة؟

كل هذه أسئلة لا جواب لها مستقيما عند أصحاب هذه الشبهة ، ولا يمكنهم تحقيق العدل بغير التشريع الإسلامي الذي كرّم المرأة ، ويسّر عليها ؛ فلم يوجب عليها ما يشق عليها من النفقة وتحمل المسؤولية المالية كالرجل ، بل أعطاها من المهام والواجبات العظيمة ما يناسبها بدنيا ونفسيا .

وننبّه هنا إلى جواب حرص بعض أهل الخير على ذكره ، وحاصله : أن حالات أخذ المرأة على النصف من الرجل هي حالات قليلة بالنسبة للحالات التي تسوى فيها المرأة بالرجل أو تفوقه .

وهذا الجواب غير موفق إذا اقتُصر عليه ، لأمور :

أولا : لأنه لا يعالج أصل الإشكال ، وإنما يحاول "ترقيع" المسألة .

ثانيا : لأنه لا يمثل الواقع بالشكل الصحيح ، فحالة أخذ المرأة النصف وإن كانت أقل نظريا من حيث التصنيف ، إلا أنها هي الحالة الأكثر حصولا .

ثالثا : هذا الإيهام قد يكون له أثر سلبي على المسلم إذا فهم النقطة الثانية .

ولكن يمكن ذكر هذا الجواب بعد ذكر الجواب الذي يعالج أصل الإشكال كما تقدم .

قوامة الرجل على المرأة

تقدم في مقال سابق الحديث حول سؤال هل المرأة والرجل متماثلان من الناحية الخَلْقية؟

وبينّا أن بينهما فروقا من الناحيتين الخَلقية والنفسية ، وأن هذه المسألة هي مسألة وجودية عقلية فطرية محسوسة ، ولا يوجد عاقل يخالف فيها .

وبناء على ما تقدم تأصيله في ذلك المقال من أن التفريق بين الرجل والمرأة ليس ظلما في أصله ، فإننا سوف نتكلم هنا عن حكم شرعي مهم من أحكام الشريعة الإسلامية ، وهو قوامة الرجل على المرأة .

ومفهومها : أن الرجل هو المسؤول عن المرأة ، ومعنى هذه المسؤولية : أن الرجل مكلف بالإنفاق عليها ، ورعايتها ، وحمايتها ، وهي مكلفة بطاعته في طاعة الله تعالى .

وقد نص الله ﷻ على هذه الولاية في قوله : ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الن ساء : ٣٤] ، وقوله : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ

بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ [البقرة : ٢٢٨] . وغيرها من النصوص .

وقد أجمع المسلمون على هذا الحكم .

والقوامة أمر ضروري قائم على مسلّمات شرعية وعقلية ، منها :

أولا : أن الأسرة كيان واحد ، ولا بد من الحفاظ على قوته وتماسكه ، وهذا لا يكون إلا من خلال وجود رأس مطاع الأمر في الأسرة .

ثانيا : أعطت الشريعة هذه المسؤولية للرجل ، بناء على أنه أقدر على تحمل الأعباء الجسدية والنفسية لهذه المهمة ؛ فهو الذي يخوض غمار الحياة بما فيها من عناء ومشقة ليحصّل الرزق ، وهو الأقدر على التحكم في عاطفته في اتخاذ القرارات .

وهذا مبني على الغالب من أحوال البشر ، وإلا فقد يكون في أفراد النساء من يفوق بعض أفراد الرجال في بعض هذه الأمور ، ولكن الشريعة تبني أحكامها على الأصل والغالب .

ولا ينافي هذا الأخذ برأي المرأة ومشاورتها ، ولا يعني بحال من الأحوال عصمة الرجل من الخطأ ، أو جواز طاعته فيما يخالف الشريعة ، ولا يعني أنه لا يحاسب على أخطائه .

ثالثا : لكل من الرجل والمرأة طبيعة مختلفة عن الآخر ، وهذا ينبني عليه اختلاف في بعض المهام التي توكل إلى كل منهما .

ومما يترتب على هذه الولاية :

١- إلزام المرأة بطاعة زوجها في المعروف .

٢- إلزام الزوج بالنفقة على زوجته ، ومما يشمله تأمين الطعام والملبس والمسكن ، والمرأة غير ملزمة بشيء من هذه النفقات ، ولو كانت غنية ، ولها أن تعطي زوجها برضاها .

٣- كون الطلاق بيد الرجل . . مع وجود تشريعات تمنع الرجل من الاستغلال السيء لهذا الأمر .

٤- إلزام الرجل بالمعاملة الحسنة للزوجة ، وتحريم ظلمها .

٥- من منطلق مسؤولية الرجل عن العائلة وعن زوجته فإن له أن يعيدها إلى الصواب إذا صدر عنها ما يخل بنظام الأسرة ، فله أن يبدأ بوعظها بالكلام الحسن ، فإن لم يصلحها ذلك هجرها في الفراش ، فإن لم يصلح ذلك له أن يضربها ضرب تأديب ، غير مبرح .

وهذا خيار من الخيارات ، للرجل أن يتركه إلى الطلاق ، أو إلى التحكيم المذكور في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ

حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ [النساء : ٣٥] .

ولا يجوز للرجل اتخاذ هذه الصلاحيات ذريعة لظلم المرأة بحال من الأحوال .

فإن قيل : كيف للمرأة أن ترفع الظلم عن نفسها في هذه الحال؟

فالجواب : أن لها أن ترفع أمرها إلى القاضي ، أو إلى من يقوم مقامه من رجال الإصلاح .

٦- يترتب على هذه الولاية كذلك : أن المرأة لا بد أن يكون لها ولي عند تزوجها . . ووليها هو والدها إذا كان موجودا ، فإن منعها من الزواج ظلما ، بغير حق ، فلها رفع أمرها إلى القضاء كذلك .

هذا بيان مختصر للمسألة ، وإذا تصوره الإنسان فإن رفع الشبه المتداولة عن هذا الحكم يكون يسيرا ؛

فشبهة أن إعطاء حق الولاية للرجل فيه ظلم للمرأة من حيث الأصل ، يكفي في رفعها هذا التصور الصحيح .

فإن قيل : إن الرجل قد يسيء استخدام هذه الولاية فيظلم المرأة ، فلا بد من أن نجعل المرأة كالرجل في الولاية .

فالجواب من وجوه :

الأول : أن جعل المرأة كالرجل في الولاية لا تستقيم معه الحياة ، فهي كيان كباقي الكيانات البشرية ، لا تستقيم إلا بوجود جهة واحدة مطاعة .

الثاني : قد رفعت الشريعة الإسلامية هذه المخاوف بأن قيدت ولاية الرجل بطاعة الله ، وبنهيه عن الظلم ، وبإعطاء المرأة حق رفع أمرها إلى القضاء ، أو إلى من يوقف الرجل عند حده ، وغير ذلك من التشريعات .

ولو أردنا أن نلغي كل ولاية لاحتمال ظلم صاحبها لما استقامت أمور البشر ، فكل صاحب ولاية قد يستغلها استغلالا سيئا ، وهل من العقل أن يقول القائل : بما أن رئيس الدولة الفلاني ظالم فيجب أن نلغي منصب الرئيس؟!

هذا لا يقوله عاقل ، فالعقلاء هنا يدركون أن وجود رئيس أمر لا بد منه ، وأنه يترتب على عدم وجوده مفاسد لا حصر لها ، ولكنهم يدركون أنه قد يسيء استخدام منصبه فيعمدون إلى وضع القيود والضمانات التي تبعد احتمال الظلم .

الثالث : يلزم من رفع هذه الولاية أمور ، من أهمها أن تكلف المرأة بالنفقة على نفسها ، وألا تكون المرأة في حفظ الرجل وحمايته .

الرابع : وجود صور من ظلم المرأة في المجتمع لا علاقة له بالحكم الشرعي ، فمن يظلمون زوجاتهم في الغالب لا يراعون حرمة

الشريعة ، ولا يكون منطلقهم مبدأ الولاية ، وإن كان فهو ادعاء غير مقبول .

هذا ، وقد ترتب على الإخلال بهذا الأصل الإخلال بطبيعة حياة المرأة ، ومفهوم دور المرأة في المجتمع . . وسنفصل الكلام في ذلك في المقال الآتي .

دور المرأة في المجتمع

مرادنا بدور المرأة في المجتمع : ما المهام التي أعطتها الشريعة للمرأة في المجتمع؟ ما حدودها؟ هل فيها مهمات أساسية ، وأخرى ثانوية؟ هل فيها ما هو واجب ، وما هو مباح؟

يمكن تقسيم دور المرأة هنا إلى : دورها داخل بيت الزوجية ، وإلى دورها خارج البيت .

أما دورها داخل بيت الزوجية فإنه دور مركزي ، أشار إليه النبي ﷺ بقوله : «والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها» [أخرجه البخاري ومسلم] ، ويمكن إجمال هذا الدور بأنها مسؤولة عن حفظ البيت في غيبة زوجها ، ومسؤولة عن توفير الجو المناسب لزوجها وأولادها ليكونوا أفرادا ناجحين منتجين في المجتمع . . إن هذا الدور ليس بالدور الهين ولا هو دور ثانوي ، بل هو دور أساسي ، فبدون وجود تلك الحاضنة التي توفر الدعم المعنوي والحياتي فلن يوجد رجال ناجحون في الغالب ، وما كان كثير من عظماء الأمة وقادتها إلا نتاجا لأمهات عظيمات ، عرفن دورهن ، وأبصرن طريقهن . .

وهذا الدور أمر فطري جبلي ، لا يختلف باختلاف الزمان أو المجتمع ، وإن توهم ذلك بعض الناس ، بل إن الإخلال به يترتب

عليه مفاسد أسرية ومجتمعية كبيرة ، فكما أن البيت لا يقوم إلا بالنفقة والمال ، فإنه كذلك لا يقوم إلا بوجود من يرعاه من الداخل .

وأما دورها خارج البيت فإنه بالجملة اختياري ، ثانوي بالنسبة لها ، فالشريعة -مثلا- لم تكلف المرأة خوض مشاق الحياة ولا الإنفاق على أحد ، بناء على طبيعتها ، وهذا لا يعني منع المرأة من العمل ، بل عملها مباح إذا لم يكن فيه شيء محرم لذاته ، وقد يكون حاجيا أو ضروريا أحيانا .

وكذا يقال في التعليم .

وقد تمنعها الشريعة من بعض الوظائف التي لا تناسب طبيعتها ، كالولاية العامة ، والقضاء على رأي الجمهور .

وليس المراد هنا التفصيل في ذلك ، ولكن المراد هنا بيان ما هو أساسي وما هو ثانوي بالنسبة للمرأة في الإسلام ، لتعرف أولويتها ، ولتبصر طريقها بوضوح . . .

لقد ركز دعاة "تحرير" المرأة على هذه المسألة تركيزاً كبيرا ، محاولين تنفير المرأة من فكرة القرار في البيت ، وأن مكانها الطبيعي هو في منافسة الرجل في الحياة لتأخذ حقها منه وكأنه عدو مبين لها!

ومن صور ذلك : التزهيد في أمر الزواج ، والدعوة إلى تأخيره قدر الإمكان ، مع محاولة إقناع المرأة بأن الزواج وتكوين الأسرة أمر ثانوي

وغير ضروري ، وأن الأولوية بالنسبة للمرأة هي "الكفاح" ، مستخدمين في ذلك خطابات تعتمد على العاطفة .

ومن ذلك أيضا : إبراز النماذج الظالمة في حق المرأة ، للتنفير من وجود ولي مسؤول عنها .

ومن ذلك : التركيز على إبراز نماذج نسائية شقت طريق نجاحها في الحياة . . وقد تكون نماذج ممتازة ، ولكنهم يستغلون هذه النماذج للترويج لأجنداتهم وأفكارهم الخاصة بهم .

ومن ذلك : تنمية فكرة أن العلاقة بين الرجل والمرأة هي علاقة تنافس وعداء وصراع ، لا أنها علاقة تكامل وحاجة ومودة .

وختاما فإنه من المهم جدا أن نبثّ في بناتنا أن كثرة الخروج من البيت ليست ميّزة ولا تكريما لها ، وأن ظهور صور النساء في الإعلانات ليس حرية ، بل هو استغلال تجاري رخيص للمرأة . . . من المهم أن نعظم في عيونهن معاني الأمومة وأهمية الأسرة ، وبيان دورها الأساسي والمركزي في هذه اللبنة الأساسية في المجتمع كله . . .

الحجاب مشروعيته والحكمة منه، وأهم الشبهات حوله

الحجاب من أهم التشريعات الربانية والأوامر الإلهية التي أمر الله بها المرأة المسلمة ، وهو من أهم التشريعات التي تحافظ على سلامة المجتمع من انتشار الفواحش ، وتضمن سلامة النساء من الاعتداء والأذى .

وقد بات الحجاب يشكل مسألة من أهم المسائل الفيصلية التي تفصل ما بين الإسلام وثقافة الغرب ، وذلك لأنه يصادم ثقافتهم التي تنبذ العفة ، وتشمئز من الطهر .

وقد دل على وجوب الحجاب على المرأة أدلة عدة ، منها :

قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ﴾ [الأحزاب : ٥٩] ، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : رحم الله تعالى نساء الأنصار ، لما نزلت : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ...﴾ شَقَقن مُرُوطهن ، فاختمرن بها [أخرجه البخاري] .

ومنها قوله تعالى : ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ [النور : ٣١] ، فقوله تعالى :

﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ نص صريح واضح في وجوب الحجاب ، حيث أمر الله تعالى المؤمناتِ بتغطية الجيب - وهو مدخل الرأس في الثوب- بالخمار وهو غطاء الرأس ، ونهى نهيا واضحا عن إبداء مواضع الزينة لغير المحارم المذكورين في الآية . . .

وقد أجمع المسلمون على أن الحجاب فرض واجب على المرأة المسلمة .

وأما الحكمة من إيجاب الحجاب على المرأة فيمكن بيانها من خلال أمور :

الأمر الأول : الحكمة الكبرى من الحجاب -ومن كل تشريع- : التعبد لله تعالى وامتثال أوامره ، فلا يسع المسلمة المطيعة لله وقد علمت أن الله يأمر بالحجاب إلا أن تستجيب لذلك ، راضية بحكم الله ، موقنة بأن فيه مصلحتها في الدنيا والآخرة ، مستحضرة أنها تأخذ الأجر والثواب على كل خطوة تخطوها نحو الحجاب ، وعلى كل أذى تتعرض له بسببه ، وعلى كل لحظة ترتديه فيها .

الأمر الثاني : لما كانت طبيعة المرأة تختلف عن طبيعة الرجل ، وكان ما يجذب المرأة إلى الرجل غير ما يجذب الرجل إلى المرأة= اختلفت طبيعة العورة في كل منهما .

ولما كان ميل كل من الرجل والمرأة إلى الآخر أمرا جبليا فطريا فقد أمرت الشريعة كلا منهما بأن يستر عورته ، لأن الإنسان إذا ترك على جبلته فإنه سوف يتجاوز حدوده ، مما يؤدي إلى اعتدائه على غيره .

ولذلك فإن حماية المرأة المسلمة من الأذى هو من أهم حكم الحجاب ، فمرضى القلوب يمنعهم الحجاب غالبا عن التعرض للمرأة المتحجبة ، كما قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب : ٥٩] .

ولذلك أيضا كان الحجاب لبنة أساسية في المحافظة على سلامة المجتمع من انتشار الفواحش ، بل إن له ارتباطا وثيقا بمقصد حفظ النسل ، فالتبرج من أسباب انتشار الزنا ، والزنا من أسباب قلة نسل البشرية .

الأمر الثالث : الحجاب يتناسب مع ما جُبلت عليه المرأة من الحياء ، فهو يكمل حياءها وينميه .

وإذا علمت المرأة المسلمة النصوص الشرعية الآمرة بالحجاب ، وعلمت منزلة الحجاب العالية في الإسلام ، ثم تأملت في هذه الحِكم . . علمت أنها بحجابها تمثل دورا مهما ، وتساهم في سلامة المجتمع كله ، ولذلك فإن النبي ﷺ لما ذكر المتبرجات في قوله :

«صنفان من أهل النار لم أرهما بعد...» [أخرجه مسلم] جمع بين المتبرجات وبين الظلمة في سياق واحد ، ولعل من حكم ذلك : ما يشتـــــــــركان به من عموم الفساد والأذى ، كما أنه لا يخفى أن نشر العري والتبرج هو من أهم وسائل الظلمة والمفسدين في تخدير الشعوب وصرفهم عن قضاياهم المهمة .

. . وعلِمتْ كذلك أن عدم الالتزام بشروط الحجاب ، وتفريغه من الغاية منه ، هو مما يخالف شريعة الإسلام ، فالحجاب شُرِع لستر الزينة لا لإظهارها .

هذا ، ولا يخلو بعض هذه الحكم من اعتراضات من قبل المعترضين على الحجاب ، وسنتكلم هنا حول خمس شبهات شائعة حول الحجاب :

الشبهة الأولى ، قولهم : الحجاب مسألة خـــــــــلافية لأن العلماء اختلفوا في تغطية الوجه .

الجواب : أن وجوب الحجاب ليس مسألة خلافية ، بل هو حكم مجمع عليه بين المسلمين ؛ والخلاف في وجوب تغطية الوجه لا علاقة له بالإجماع على وجوب الحجاب ، فالمسألتان متغايرتان .

الشبهة الثانية ، قولهم : الحجاب يؤدي إلى الكبت ؛ والحلُّ هو إشاعة كشف العورات ، فإذا فعلنا ذلك هدأت النفوس ، وتعوّد الرجال على رؤية عورات النساء .

والجواب من وجوه ، منها :

أولا : هذه النظرة غير واقعية ، تصادم طبيعة النفس البشرية ؛ فالشهوة كلما ولغ فيها الإنسان ازداد شهوانية ؛ فكما أن الإنسان إذا بالغ في الأكل لا يستغني عن الطعام ، فكذلك إذا أشاع كشف العورات لا يستغني كل من الجنسين عن الآخر .

والحل الصحيح هو التشريع الرباني الذي يوجه هذه الغريزة إلى الاتجاه الحلال ، ويقطع الطرق الأخرى بشكل حاسم ، فيوجه الإنسان إلى الزواج ، ويحرم الزنا وكلَّ ما يؤدي إليه من نظر وكشف للعورات واختلاط محرم .

ثانيا : هذه النظرة غير ناجحة على أرض الواقع ؛ فالغرب لا تلتزم النساء فيه بأي قيود في الملابس ، ومع ذلك لم نر الشهوة خَبَتْ أو خفّت في رجالهم ، بل نرى السعار الجنسي شائعا بينهم . . زنا بلا حدود ، ونسب اعتداء خيالية على النساء ، اغتصابا وقتلا ، وليس من الصعب على أي باحث أن يجد مثل تلك الإحصائيات . . .

فلماذا نرى هذا عندهم ، بينهما نرى المجتمعات الإسلامية -على ما فيها الآن من تفلت- لا تبلغ نسب الاعتداءات فيها تلك النسب بل ولا تقاربها؟ السبب هو بقايا الالتزام بالشريعة التي عندنا .

ثالثا : هذه النظرة يكذبها أصحابها ، فهم واقعيا لا يطلبون العفة بكشف العورات ، بل يستمرون ويزيدون في إشاعة الفواحش .

الشبهة الثالثة ، قولهم : هناك محجبات سيئات الخلق ، عندهن مخالفات .

الجواب : أن المحجبة غير معصومة ، بل هي كغيرها من البشر معرضة للخطأ والصواب ، ولا يجوز أن نجعل الناس معيارا نقيس به حُسْن الأحكام الشرعية الثابتة ، فالحكم الشرعي شيء ، والناس الذي يطبقونه شيء آخر . . . التزمي أنت بالحجاب وكوني قدوة حسنة .

الشبهة الرابعة ، قولهم : الحجاب "حرية شخصية" .

الجواب من وجوه ، منها :

أولا : الحجاب ليس أمرا تُخيَّر فيه المرأة ؛ بل إن الحجاب واجب عليها كالصلاة ، وليس الأمر "حرية شخصية" .

ثانيا : كثير من المسلمين الذين يطلقون هذه العبارة لا يدركون أبعادها ، فما المقصود بها؟ إذا كان المقصود إنكار وجوب الحجاب ؛ فهذا أمر خطير مخالف لما عُلم بالضرورة من دين الإسلام .

وإذا كان المراد : أنه واجب ولكننا لا نلزم به المرأة ؛ فهو أمر خطير كذلك ، ينطوي على إنكار وجوب تحكيم الشريعة ، وهو أمر معلوم وجوبه ضرورة كذلك .

وإذا كان المراد : أن الواجبات الشرعية تتعارض مع "الحرية الشخصية" ؛ فهذا أحد أبرز معالم الفكر العلماني الليبرالي المعلوم مخالفته ضرورة كذلك لدين الإسلام .

ثالثا : كثير من العلمانيين يستخدمون مثل هذه العبارة الجميلة في ظاهرها كخطوة أولى لتزهيد النساء في الحجاب حتى لو بقين على حجابهن ، فاقتناع المحجبة بأن الحجاب مجرد خيار شخصي هو أول خطوة لنزع الحجاب أو التساهل في شروطه ، فضلا عن ما فيه من اعتقاد فاسد تقدم بيانه .

الشبهة الخامسة ، قولهم : ترك الحجاب من لوازم الحضارة والرقي ، لأن الغرب متقدم علميا وحضارياً والنساء هناك لا يلتزمن بالحجاب .

والجواب على هذه الشبهة من وجوه ، منها :

أولا : لا نسلم بوجود ترابط بين كشف العورات وبين التقدم العلمي . . هذه مجرد دعوى لا دليل عليها ، فالتقدم العلمي له أسباب يعرفها البشر ليس من بينها ترك الملابس ؛ والربط بين التقدم وبين كشف العورات هو إدخال لتوجه فكري معين لا علاقة له بالموضوع ، فكرٍ ينفر من الدين بكل مظاهره وأشكاله .

ثانيا : التقدم العلمي ليس مرادا لذاته ، بل مراد لإقامة دين الله تعالى ، فإذا سُخر التقدم في غير مرضاة الله فهو مذمة لا منقبة ، كما

قال تعالى : ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران : ١٩٦-١٩٧] .

ثالثا : لا نسلم بالتقدم الحضاري عند الغرب من كل وجه ، بل فيه أوجه خلل كبيرة وخطيرة تقدم ذكرها -عموما- في المقالات المتعلقة بموقف المسلم من حضارة الغرب ، وتقدم هنا ذكر فشل النظرة الإباحية في محاربة الكبت والاعتداء على المرأة .

المحرّكات نحو الحجاب

نختم حديثنا عن الحجاب بذكر أهم العوامل التي تشجع المرأة على الالتزام بالحجاب الشرعي ، فمن هذه العوامل :

أولا : الحياء . . فالحياء أول الحجاب وآخره ، بل هو للمرأة كيانها وشخصيتها وحياتها ، بل . . ما المرأة إلا حياء يدب على الأرض فإذا ذهب الحياء فلا مرأة!

إن تربية البنات منذ الصغر على الحياء هو أكبر معين على الحجاب ، بل على صلاح حال المرأة عموما . . وأما شعارات "الريادة" و"القوة" و"المساواة" فالمعنى الصحيح فيها ما كان في سياق الحياء والتزام أحكام الشريعة ، وأما إن استخدمت في سياق مضاد للحياء فما هي إلا اغتيال لروح المرأة ، وما هي إلا حيل شيطانية وسموم علمانية ، يُقصد بها هدم أحكام الإسلام المتعلقة بالمرأة .

ثانيا : إدراك أهمية الحجاب ، وهذا يكون من خلال معرفة الحكمة من الحجاب ، ومعرفة مكانته في الإسلام ، وقد تقدم هذا معنا في مقال : الحجاب مشروعيته والحكمة منه .

ثالثا : عدم الاستجابة للواقع المخالف للشريعة ، وللأسف فإن مجاراة الصديقات في الباطل ، وتتبع الموضات ، والخوف من نقد

بعض الناس من أهم أسباب ترك الحجاب ، أو التأخر في ارتدائه ، أو التساهل في شروطه .

فلتتذكر المرأة المسلمة هنا قول النبي ﷺ : «من التمَسَ رضا الله بسَخَط الناسِ كفاه الله مُؤْنَةَ الناسِ ، ومن التمس رضا الناس بسَخَطِ الله وَكَلَهُ الله إِلَى النَّاسِ» [أخرجه الترمذي] ... لن يتحمل أحد عنك الإثم . . سوف تحاسبين وحدك . . فأعرضي عن الجاهلين .

رابعا : إشاعة الكلام في الحجاب ، في فضله وأهميته ، ولنكوّن ثقافة مضادة لتلك التي بثتها فينا المسلسلات والمحيط الفاسد . . لنجعل الحجاب أمرا محبّبا إلى بناتنا ونسائنا .

خامسا : الإلزام بالحجاب من قبل الحكومات ، ومن قبل الآباء ؛ فالحجاب من أهم شعائر الإسلام التي يجب الحفاظ عليها بكل وسيلة ، وتركه من المنكرات الظاهرة التي يجب التصدي لها من قبل كل صاحب مسؤولية .

حال المرأة بين العالم الإسلامي والعالم الغربي

تتعالى أصوات الجمعيات النسوية في بلاد المسلمين عامة ، كلما حدثت حادثة فيه ظلم أو اعتداء على بعض النساء ، مستغلين تلك الحوادث القليلة وغير المقبولة إسلاميا ، لِبَثّ الأفكار الغربية حول المرأة ، بل وللمطالبة بتغيير بعض القوانين بما يتوافق تماما مع النظام الغربي الليبرالي ، بكل ما فيه من مخالفات للشريعة .

ونحن لا ننكر وجود حالات اعتداء ظالمة على بعض النساء في مجتمعاتنا ، ولكننا ننكر الاستغلال النسوي غير البريء لهذه الحوادث ، ويمكن بيان هذا من خلال أمور :

أولا : حالات الاعتداء على النساء غير مقبولة ، ويجب علاجها بالطرق المشروعة ، ولكن إظهارها على أنها ظاهرة متفشية غيرُ مقبول ، وفيه ظلم لعموم المجتمع . . ونسأل هنا سؤالا : لماذا يحس عموم المجتمع المسلم بالصدمة عندما يسمع عن حالة اعتداء على امرأة؟ لماذا يستنكر عموم المجتمع ذلك؟ الجواب : لأنه غير معتاد على هذا ، ولأن هذا أمر غريب عليه وعلى ثقافته ، ولأن الغالب هو الجانب الإيجابي فإنه لا يحس به بعض الناس إلا عند غيابه في تلك الحالات القليلة .

بل الغالب على مجتمعنا هو صيانة مكانة المرأة ، وهذا لا يعني وجود صور من الظلم ، ولكنها لا تقارن أبدا بما عند الغرب من ظلم المرأة .

ولو أننا في دولة -كفرنسا- والتي تقتل فيها امرأة كل ثلاثة أيام -بحسب بعض الإحصاءات- لكانت هذه الجرائم مقبولة عندنا... ولو أننا في أمريكا التي تُغتصب فيها امرأة كل ٩٦ ثانية ، والتي كان في جيشها ٢٦٠٠٠ ألف حالة اغتصاب في عام واحد . . لما استغربنا كذلك!

ولكننا نحمد الله تعالى على ما عند المجتمعات المسلمة من تمسك بدينها في هذا الباب . . نعم هذه البقايا الموجودة في الناس هي التي جعلت تلك المكانة المصونة للمرأة في المجتمعات المسلمة ، لم تحظَ المرأة عندنا بهذا الاحترام لا بثقافة الغرب ، ولا بقانون علماني .

وما وجود الظلم في حق المرأة عند بعض الناس إلا نتيجةٌ للبُعد عن تعاليم الإسلام .

ثانيا : وجود الانتقائية عند الحركة النسوية واضح ، فإنهم يختارون قضايا معينة ، بينما يهملون قضايا أخرى فيها اعتداء وظلم على نساء أخريات ، تعرضن للقتل على يد المحتل أو الظالم ، فإنهم

إن تعاملوا مع هذه القضايا فتعاملهم يكون باردا محدودا . . والسؤال هنا : لماذا هذه الانتقائية؟

ثالثا : المطالبة بسن قوانين لحماية المرأة لا اعتراض عليه من حيث الأصل ، ولكن الاعتراض على ما يخالف الشريعة الإسلامية من هذه القوانين ، فالقوانين التي تفرض على المجتمع مثل اتفاقية سيداو ، غير مقبولة في الإسلام ، بما في ذلك ما يتعلق برفع الولاية ، وحرية التبرج ، والحق في ممارسة الشذوذ الجنسي والدعوة إليه!

رابعا : هذه الجمعيات تطالب بتعديل القوانين في ضوء تلك الاتفاقيات الدولية ، متجاهلين تماما ثقافة المجتمع المسلم ، والذي يرفض فرض تلك القوانين المخالفة للشريعة عليه . . لو تنزلنا معكم : بأي صفة "تشريعية" تطالبون بتعديل القوانين وفق أجنداتكم وأجندات الغرب؟!

خامسا : سؤال لذوي العقول : هذا الغرب يطبق تلك القوانين التي تطالبون بفرضها علينا . . لماذا إذن عجز الغرب عن معالجة الاعتداءات على النساء؟ لماذا لا توجد مقارنة أصلا بين حالات الاعتداءات عندنا وبين حالات الاعتداء عندهم؟

هل يقول العقل أن نهدم ما عندنا ونخلع ثوبنا لنلحق بالغرب ، فنرجع إلى الوراء في هذا الملف؟ أم نعالج الخلل الذي عندنا في ضوء شريعتنا التي صانت المرأة وكرمتها؟

هذا نداء إلى كل منخدع ومنخدعة . . افتحوا عيونكم ، فدينكم وشريعتكم فيها نجاتكم في الآخرة ، وسعادتكم في الدنيا .

خاتمة

... وبعد ، فهذه جولة تعريفية مختصرة ببعض معالم هوية المسلم المهمة . . لا أدّعي الاستقصاء ، وإنما هي مساهمة في بيان مجموعة من القضايا التي يسبب عدم وضوحها إشكالات ، ويؤدي غياب صورتها الصحيحة التأثرَ بالشبهات .

إن المطلوب من المسلم المعاصر أن يواجه ذلك الطوفان الفكري الذي يتعرض له بيقين أن دينه هو الدين حق . . هو المعيار الذي يزن به الأديان والأفكار . . هو الأساس الذي يقوده في حياته ، ويحدد عليه مواقفه ، ويبني على تصوراته .

ومن المهم أن يدرك المسلم المعاصر أن الحالة الفكرية الغربية لا تعدو أن تكون نتاجا بشريا . . يحاول تقديم الحلول بعيدا عن الدين . . ولكن نقص النفس البشرية ينعكس على هذه الحالة بشكل مباشر . . ضلالا في التشريعات ، وتناقضا في الأفكار والتنظيرات .

إذا امتلك المسلم ذلك اليقين بدينه ، وذلك الوعي بحقيقة الحالة الغربية ، اتضحت له الصورة ، وصار فهمه للواقع أكبر ، وصار تعامله مع الشبهات قائما على فهم عميق . . يطل عليها من علو ، ويحمد الله تعالى على نعمة الهداية إلى دين الإسلام .

.. إن المطلوب من المسلم أن يواجه ذلك الطوفان الفكري الذي يتعرض له بيقين أن دينه هو الدين الحق.. هو المعيار الذي يزن به الأديان والأفكار.. هو الأساس الذي يقوده في حياته، ويحدد عليه مواقفه، ويبني عليه تصوراته.

ومن المهم أن يدرك المسلم أن الحالة الفكرية الغربية لا تعدو أن تكون نتاجا بشريا.. يحاول تقديم الحلول بعيدا عن الدين.. ولكن نقص النفس البشرية ينعكس على هذه الحالة بشكل مباشر.. ضلالا في التشريعات، وتناقضا في الأفكار والتنظيرات.

د. هادي بهجت صبري

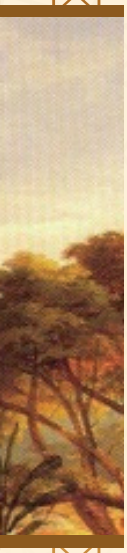

تم بحمد الله